د. نبيل فاروق

2
المتخصصون

Looloo
www.dvd4arab.com

لعبة الثعالب

المتخصصون

من بين كل رجال المخابرات المصرية، يحتل وحده مكانة خاصة...

مكانة صنعها أسلوبه الفريد..

وكفاءته المتميّزة..

وعقليته النادرة...

النادرة جداً..

ولأنه شخص فريد بين أقرانه؛ أسندت إليه قيادة فريق جديد...

فريق من شباب المخابرات، الذين تلقوا تدريبات خاصة، واكتسبوا خبرات نادرة، جعلتهم يستحقون، تحت قيادته، ذلك الاسم، الذى أطلقه عليهم الجميع ...

المتخصصون.

* * *

و.نبيل فاروق

1- حصار..

القاهرة.. شتاء عام 1970م..

سطعت الشمس على نحو غير مألوف، في تلك الفترة من العام، وغمرت حديقة تلك الفيلا الصغيرة المنعزلة، بشعاعها الذهبي الدافئ، فأغلق العميد عينيه في استمتاع، وترك جسده يسترخي في مقعده المتحرّك، وبدا للمشاهد أشبه بالغارق في سبات عميق، حتى أن اللواء، القادم من جهاز المخابرات مباشرة عبر باب الحديقة في حذر، ويسير على أطراف أصابعه، مقتربًا من العميد، وعلى الرغم من ثقته في أنه لم يُصدِر أدنى صوت، فوجئ بالعميد يغمغم في هدوء:

- في موعدك بالضبط يا سيادة اللواء.

قالها، قبل أن يفتح عينيه، ويعتدل على مقعده، ويرسم على شفتيه ابتسامة هادئة، استقبلها اللواء بدهشة حقيقية، وهو يسأله:

- كيف أدركت؟..

حافظ العميد على ابتسامته، وهو يقول:

- عندما تصاب الأطراف بالعجز، تنشط كل الحواس الأخرى يا سيادة اللواء.

وافقه اللواء بإيماءة من رأسه، وهو يتخذ المقعد المجاور له، قائلاً:

- وبالذات العقل.. وأنت خير دليل على هذا.

أشار العميد بيده، دون أن يجيب، وبدت إشارته بلا معنى محدود، قبل أن يعتدل أكثر على مقعده، ويترك لذكرياته العنان..

تذكَّر كيف كان مفعمًا بالنشاط والحيوية والقوة، حتى تلك الليلة، منذ ما يقرب من عام مضى، عندما واجه رجل مخابرات إسرائيلي في (بيروجيا) الإيطالية، وانتهى الأمر بإصابة عموده الفقري، و... وعجزه.

بعدها أنشأت المخابرات العامة المصرية ذلك القسم الجديد، تمهيدًا للحرب..

القسم الخاص..

أو كما يطلقون عليه (المتخصِّصون)..

كان القسم يضم مجموعة من الشباب، الذين تلقوا تدريبات خاصة جدًا، في مجالات مختلفة، وأظهروا موهبة وبراعة وتفوقًا فيها..

وكان القسم يحتاج إلى قائد..

ويا لها من مفارقة..

مجموعة الشباب، المتفجرة بالمواهب، والخبرات، والقوة، والحيوية والنشاط، أصبح هو قائدها..

ومن على مقعده المتحرِّك، أدار اللعبة كلها..

وانتصر في الجولة الأولى، و...

"(رأفت) و(وليد) ما زالا في قلب العدو.."..

نطقها اللواء في توتر، وهو يميل بجسده كله نحو العميد، الذي تطلَّع إليه في هدوء، لا يحمل أية انفعالات واضحة، فتابع في توتر أكثر:

- ضابط (الموساد) (حونين) يشن حملة تفتيش شعواء، في البلاد التابعة له كلها، وضاعف من الحراسة على كل نقاط الحدود، على نحو لم يحدث من قبل، في تاريخ (إسرائيل) كله، وحتى مجموعة الاتصال

الفلسطينية تجد صعوبة في الحركة عبر الحدود.

تطلّع إليه العميد في صمت تام، ونقل بصره منه إلى لوحة الشطرنج، الموضوعة دومًا على تلك المنضدة الصغيرة في الحديقة، وبدا وكأنه منشغل بها تمامًا، حتى قال اللواء، في شيء من العصبية:

- لقد أصبحت مسألة وقت فحسب.

واصل العميد صمته، وتطلّعه إلى رقعة الشطرنج بضع لحظات أخرى، قبل أن يسأل فجأة:

- هل عاد (صبرى) من (لندن)؟!

تراجع اللواء في دهشة، وسأله:

- وما شأن هذا بما نتحدّث عنه؟!

أشار العميد إلى رقعة الشطرنج، مجيبًا:

- لقد طلبت معاونة.

هتف اللواء في دهشة:

- من (لندن)!

ابتسم العميد، وامتدت أصابعه تنقل بيدقًا من بيادق الشطرنج، وهو يقول:

- الضربة تفقدك صوابك؛ عندما تأتى من حيث لا تتوقعها.

التقى حاجبا اللواء بضع لحظات، وهو يتطلّع إليه في صمت، قبل أن يميل نحوه مرة أخرى، ويسأله في حزم:

- ما هي خطتك بالضبط؟!

أشار العميد بسبّابته، وهو يقول:

- إرباك الخصم، وجذبه إلى ميدان معركة مختلف.

سأله اللواء في لهفة:

- كيف؟!

والتقط العميد نفسًا عميقًا، وتطلّع إلى رقعة الشطرنج بضع لحظات، قبل أن يقول:

- بوسيلة معقدة..

وباختصار، راح يروى..

ويروى..

ويروى..

* * *

ابتسم (غسان)، قائد مجموعة الاتصال الفلسطينية، في شيء من الحنان، وهو يتطلَّع إلى (وليد)، الذي استغرق في النوم، في قبو ذلك المنزل الصغير، في قلب (تل أبيب)، في حين جلس (رأفت) إلى جواره أرضًا، مستندًا بظهره إلى فراشه، وهو منهمك في تنظيف مسدسه، وكأنه حارس خاص له..

وفى لحظات، استعاد ذهنه كل ما حدث..

ففي لحظة ما، كشف الإسرائيليون أن مواطنهم (دافيد شولومون) عميل للمصريين، فاقتحموا منزله، وألقوا القبض عليه، وسجنوه في أعمق أعماق مقر (الموساد)، تحت حراسة مشدَّدة..

كان (دافيد) هذا قد أحرق كل ما لديه من مستندات، وتخلَّص من كل الأدلة التي تثبت تورّطه، قبل إلغاء القبض عليه بلحظات، وبمهارة تدرَّب عليها طويلاً..

وأثار هذا غضب رجل (الموساد) (حونين) بشدة..

وكما لو أنه ثارٌ شخصيّ، بذل (حونين) قصارى جهده؛ لكشف هوية (دافيد)، وإثبات تهمة الخيانة، والعمل لحساب المصريين عليه..

وكان من الطبيعي ألا تقف (مصر) صامتة، خاصة وأن (دافيد شولومون) هو في الواقع عميل مصري يدعى (وليد)، تم زرعه في قلب المجتمع الإسرائيلي، منذ بضع سنوات مضت، وقدَّم لوطنه بالفعل عشرات الخدمات، قبل أن ينكشف أمره..

لم يكن (حونين) ورجاله يدركون هذا، إلا أنهم كانوا يعلمون جيدًا، أن نجاح المصريين في الاتصال بالرجل، قد يفسد عملهم كله، لذا فقد بذلوا قصارى جهدهم؛ لمنع حدوث هذا الاتصال بأي ثمن..

وبدأ المصريون لعبتهم..

ضربات مختلفة، من اتجاهات متباينة، ومعلومات خاطئة ملفقة مدروسة، كلها دفعت الإسرائيليين إلى محاولة حماية أسيرهم بأي ثمن..

ولأن العميد، بعقليته النادرة، وبراعته المدهشة في المناورة، قد دفعهم إلى حيث يريد، فقد تصوَّروا أن الوسيلة الوحيدة؛ لمنع اتصال المصريين بعميلهم، هي نقله سرًا من مقر (الموساد)..

ولكن (رأفت)، ومجموعة الاتصال الفلسطينية كانوا في الانتظار بخطة مدروسة..

وتم إنقاذ (دافيد) أو (وليد) من قبضة (الموساد)..

ولكنه بقى مع (رأفت)، في قلب (إسرائيل)..

وكان على العميد أن يدير لعبة أخرى، بقواعد جديدة؛ لإخراج رجليه من وكر الذئاب..

لعبة عقول..

وذكاء..

ودهاء..

لعبة ثعالب..

دار كل هذا في ذهن (غسان)، في لحظة واحدة، قبل أن يجلس إلى جوار (رأفت)، قائلاً:

- (القاهرة) أرسلت تطمئن على سلامتكما.

أدار (رأفت) عينيه إليه في بطء، قائلاً:

- أبلغها أننا بخير.

أومأ (غسان) برأسه، مغمغمًا:

- لقد فعلت..

ثم أسند ظهره إلى فراش (وليد)، مضيفًا:

- وأخبرونى أنهم سيخرجونكما من هنا، خلال أسبوع على الأكثر.

صمت (رأفت) بضع لحظات، متظاهرًا بتنظيف مسدسه، ثم أعاد خزانة الرصاصات إليه، وهو يقول في حزم:

- الإسرائيليون لم يوقفوا حملات البحث عنا بعد.

صمت (غسان) بدوره بضع لحظات أخرى، قبل أن يجيب:

- إنهم يعلمون كيف يتدبرون أمرهم.

أدار (رأفت) عينيه إليه في بطء، وتطلّع إليه لحظة، قبل أن يقول:

- تبدو شديد الثقة فيهم.

ابتسم (غسان)، قائلاً:

- ألست أنت كذلك؟!

هزّ (رأفت)، كتفيه، وهو يجيب:

- إنهم أهلي، ولقد عملت معهم، وأعلم كيف يديرون الأمور، وقاندي عبقري، أثق تمامًا في دهائه، ومن الطبيعي أن...

قاطعه (غسان):

- أنا أيضًا عملت معهم.

انعقد حاجبا (رأفت)، فاتسعت ابتسامة (غسان)، وهو يقول:

- ألا تصدقني؟!

أشار إليه (رأفت) أن يصمت، وقد انعقد حاجباه في شدة، فتابع (غسّان):

- الواقع أنني قد عملت يومًا تحت...

قاطعه (رأفت) بإشارة صارمة أخرى، فأطبق غسان شفتيه، وفهم ما تعنيه نظرة (رأفت)، فأرهف سمعه، وأنصت بدوره، و...

"رباه!.."

هتف (غسّان) بالكلمة، وهو يهب من مكانه، ويلتقط مدفعه الآلي،

ووثب (رأفت) بدوره، وهو يهمس في انفعال شديد:

- إنهم هنا.

في تلك اللحظة بالذات، بدا وقع أقدام الإسرائيليين ثقيلاً، وهم يقتحمون المنزل في الأعلى، فاستدار (رأفت) يوقظ (وليد)، هامسًا:

- استيقظ يا رجل.. لقد عثروا علينا.

هب (وليد) من رقاده، وهو يهتف:

- رباه!

وضع (رأفت) يده على فمه، ليمنعه من الاستطراد، ثم جذبه من يده، وهو يهمس لـ(غسان):

- من حسن الحظ وجود مخرج بديل.

سبقهما (غسان) إلى ذلك المخرج البديل، وأزاح ضلفته قليلاً، فانهال عليه من الخارج وابل من الرصاصات، جعله يتراجع في سرعة، ويغلق الباب المعدني خلفه، هاتفًا:

- رباه!.. إنهم يحاصرون المنزل.

انعقد حاجبا (رأفت) في شدة، وهو يقول:

- هناك من أبلغهم بوجودنا هنا.

غمغم (غسان) في عصبية:

- سأقتل من فعل هذا.

أجابه (رأفت) في توتر:

- المهم أن تنجو من هنا أولاً.

تلفّت (غسان) حوله في عصبية، وتناهى إلى مسامعهم دوى طلقات الرصاص، التي يحاول الإسرائيليون بها اقتحام القبو، وأشار (وليد) إلى سيارة جيب مكشوفة، وهو يقول:

- ترى هل يمكننا؟..

قاطعه (رأفت):

- في سيارة مكشوفة؟!.. انس هذا يا رجل.

كان دوى الرصاصات يعلو، ويعلو، ووقع الأقدام يختلط بصرخات (حونين)، التي تأتي من خلف الأبواب المعدنية المغلقة:

- ماذا تنتظرون أيها الحمقى.. انسفوا تلك الأبواب.. أريدهما بأي

ثمن.. هل تفهمون.. بأي ثمن.

حمل (غسان) مدفعه الآلي في حزم، وهو يقول:

- كان مشرفًا أن أعمل معك أيها الملازم.. وسيكون منتهى الشرف أن نموت معًا.

تلفّت (رأفت) حوله، وهو يقول في توتر:

- هذا يعنى أن الإسرائيليين سينتصرون.

ثم توقّف بصره عند الجيب المكشوفة، قبل أن يلتقى حاجباه ويغمغم:

- إلا إذا.

والتفت إليه الرجلان..

ولم ينبس أحدهما ببنت شفة..

* * *

"كم يسعدني رؤيتك أيها العميد.."..

هتف (صبرى) بالعبارة في هدوء، على الرغم من ابتسامته

العريضة، فرفع العميد عينيه إليه، وقال:

- حمدًا لله على سلامتك يا (صبرى).

جذب العميد (صبرى) مقعدًا، وجلس إلى جواره، وحافظ على ابتسامته، وهو يقول:

- لا يمكنك أن تتصوَّر كم أسعدتني مكالمتك الهاتفية في (لندن).. إنني أشتاق لرؤيتك بشدة، على الرغم من أننا لم نلتق منذ... منذ..

قاطعه العميد، مكملاً بابتسامة:

- منذ إصابتي.

صمت (صبرى) لحظة، وقال:

- هذا ما كنت أقصده.

ثم تابع بنبرة مختلفة، وكأنما يقصد تجاوز الأمر:

- أبلغوني أنك ترأس الآن قسمًا جديدًا للمتخصصين.

أومأ العميد برأسه إيجابًا، وقال:

- كلهم من الصغار.

ضحك (صبرى) ضحكة قصيرة، قائلاً:

- تقصد من الشباب.

أشار العميد بسبَّابته، مجيبًا:

- بالضبط.

ثم استرخى في مقعده، واستدرك:

- ولكن جميعهم من طراز خاص جدًا.. شباب مدرَّب، على درجة عالية من الكفاءة.

واتسعت ابتسامته، وهو يضيف:

- إنهم يطبقون أسلوب تدريبك الخاص يا (صبرى).

تراجع (صبرى) في مقعده، وتساءل في اهتمام:

- حقًا؟!

أومأ العميد برأسه إيجابًا، وقال في حماس:

- بالتأكيد.. هل تذكر تجربة إعداد رجل المخابرات منذ الطفولة؟!.. تلك التجربة التي رفضوا تنفيذها في البداية، فنفذتها أنت على ولديك،

(أحمد) و(أدهم).

بدت ابتسامة (صبرى) شاحبة، وهو يقول:

- أذكرها بالطبع، وما زلت أسأل نفسي في كل يوم، هل كنت على حق فيما فعلت، أم أنني قد حرمت ولديَّ طفولتهما دون طائل.

هزَّ العميد كتفيه، قائلاً:

- كنت بارعًا في تجربتك حقًا، فبالنسبة لهما، كان هذا جزءًا من ألعاب الطفولة، ولكن على نحو تنظيمي دقيق.

تنهَّد (صبرى)، قائلاً:

- ربما، ولكنهما بديا ناضجين أكثر من اللازم، حتى في فترة المراهقة.

ربَّت العميد على كتفه، وهو يقول:

- ورثا هذا عن والدهما.

ثم استدرك، متجاوزًا هذه النقطة:

- سمعت أن (أدهم) أكثرهما تفوقًا.

هزَّ (صبرى) كتفيه، قائلاً:

- (أحمد) أكثر اهتمامًا بالجوانب العملية، ولقد التحق بكلية الطب بالفعل، أما (أدهم)..

بتر عبارته، واستعاد ابتسامته، وهو يقول:

- ولكنني لست أظنني هنا، للحديث عن تجربتي مع ولديَّ.

تراجع العميد في مقعده، وسأله:

- هذا صحيح.. ماذا عما طلبت منك القيام به في (لندن)؟!..

مال (صبرى) نحوه، وقال:

- الرجال أتموا المهمة على أكمل وجه، و...

قبل أن يتمّ عبارته، ارتفع رنين الهاتف المجاور لمقعد العميد، فالتقطه بحركة سريعة، وقال:

- رقم (واحد).

انعقد حاجباه بشدة، وهو يستمع إلى محدثه، ويعتدل بحركة حادة..

وعلى الرغم من أن العميد (صبرى) لم يسمع حرفًا واحدًا، إلا أنه

أدرك على الفور أن تلك المحادثة الهاتفية خطيرة..

خطيرة للغاية..

* * *

فجأة، ومع انفجار القنابل الإسرائيلية، في باب القبو الخلفي، انطلقت الجيب المكشوفة بأقصى سرعة..

كان (رأفت) يقودها في مهارة مدهشة، وجرأة بلا نظير، وهو يخترق بها الصفوف الإسرائيلية، وإلى جواره زميله، الذي تكوَّر على نفسه، في المقعد الجانبي..

وبكل قوته، صرخ (حونين):

- لا تقتلوهما.. أريدهما حيَّين.

انطلقت رصاصات الإسرائيليين نحو إطارات الجيب، وانفجر أحد الإطارات بالفعل، إلا أن (رأفت) ظل مسيطرًا على عجلة القيادة، وهو يندفع بالسيارة خارج الحى كله..

وبلا تردُّد، انطلق (حونين) بسيارته خلفه..

وعبر جهاز الاتصال اللاسلكي، راحت السيارات العسكرية

الإسرائيلية تسد كل الطرقات، وتصنع حواجز الشوارع؛ لمنع الجيب من الابتعاد..

وبمنتهى الدهشة، هتف قائد سيارة (حونين):

- كيف يفعلها هذا المصري؟!.. السيارة أصبحت بلا إطارات تقريبًا.

صاح فيه (حونين) في غضب:

- اصمت.

كان (رأفت) يبدو في هيئة مدهشة بالفعل، وهو ينطلق بالسيارة، وقد تمزَّقت إطاراتها المطاطية تمامًا، وصدر عنها صوت رهيب مزعج، وتطايرت من معدنها شرارات نارية مخيفة..

ولكن هذا كان يعوق سرعتها حتمًا..

لذا فقد اقتربت منه السيارات الإسرائيلية..

وحاصرته..

وأوقفته..

على بُعد حيين سكنيين، أطاحت به خمس سيارات عسكرية قوية،

صوَّب إليه ركابها مدافعهم الآلية، وبرز من إحداها (حونين)، يهتف في ظفر:

- خسرتما أيها المصريين.

اعتدل (رأفت) خلف عجلة القيادة، ورفع يديه في استسلام، وهو يغمغم:

- يالبراعتك.

تألقت عينا (حونين) ببريق النصر، وهبط من سيارته واتجه نحو الجيب، التي أوقفها (رأفت) في منتصف الشارع، وقال:

- كان ينبغي أن تعلما، منذ اللحظة الأولى، أن (حونين) لا يخسر معاركه قط، وإن طال الزمن.

أدهشه أن ابتسم (رأفت) في سخرية، وهو يقول:

- حقًا.

ثم انفجر يضحك بقوة..

بمنتهى القوة..

عندئذ فقط، احتقن وجه (حونين) في شدة..

فالمفاجأة كانت صاعقة..

وساحقة..

إلى أقصى حد.

* * *

2 - ألف.. باء..

"خطأ.."

صرخ مدير (الموساد) الإسرائيلي بالعبارة في غضب، ونهض من خلف مكتبه، ليعقد كفيه خلف ظهره، مستطردًا:

- ما فعلته كان خطأ، لا يمكن تجاوزه، أو التغاضي عنه، بأي حال من الأحوال.. لقد خالفت أبسط قواعد الأمن.. غضبك أعماك عن رؤية ألف باء اللعبة، فسمحت للمصريين بخداعك مرة أخرى.

غمغم (حونين)، بصوت أكثر احتقانًا من وجهه:

- لم أتوقَّع ما فعله ذلك المصري لحظة واحدة.. لقد أكدَّت مصادرنا أنه محاصر داخل قبو ذلك المنزل، وأنه لا يوجد منفذ واحد للفرار، إلا أنه..

ازداد احتقان صوته، فعجز عن إتمام عبارته، ليهتف المدير في غضب أكثر:

- إلا أنهم عبثوا بك.. انطلق ذلك الشاب في جرأة، مع دمية خشبية

معدة مسبقًا، وطاردتموها أنتم، دون أن تتركوا جنديًا واحدًا، لتفتيش القبو أو حراسته، وبينما تطاردون دمية، كانت الفريسة تفلت.

غمغم (حونين):

- ليس تمامًا.

لوَّح المدير بسبَّابته في وجهه، صارخًا:

- بل تمامًا.. المخربون العرب نجحوا في تهريب الصيد الرئيسي، أثناء انشغالكم بمطاردة دمية.

هتف (حونين) في عصبية:

- ولكننا أوقعنا المصري الآخر.

صرخ المدير:

- إنه مجرد مقاتل.

احتقن وجه (حونين) بشدة، وهو يتراجع في مقعده، قائلاً:

- إنه رجل مخابرات.

لوَّح مدير (الموساد) بذراعه كلها، هاتفًا:

- بل مجرَّد مقاتل.

وعاد إلى ما خلف مكتبه، وألقى جسده بحركة عنيفة على مقعده، وهو يتابع:

- كلنا نعلم أن أجهزة المخابرات تستعين دومًا بما يتفق مع أهدافها، وليس بالضرورة أن يكون من يعملون لها من داخلها.. لو احتاجت المخابرات إلى عملية بحرية، فستستعين بضفادع بشرية، ولو تطلَّب الأمر فتح خزانة ما، قد تستعين بلص خزائن، أو مزوِّر محترف.. وفى هذه المرة كانوا بحاجة إلى رجل عمليات خاصة، وها هو ذا.

غمغم (حونين)، في عصبية:

- المهم أنه في قبضتنا.

هتف المدير، وهو يقلب كفيه:

- وبم يفيدنا رجل عمليات خاصة؟!.. إنه لن يعرف على الأرجح أكثر من حدود مهمته الأساسية، وفقًا لمبدأ (المعرفة بقدر الحاجة).

أجاب (حونين) في سرعة:

- وهذا يعنى أنه يعرف كيف سيخرج المصريون عميلهم من هنا!.

مطَّ المدير شفتيه، قائلاً:

- وهل تظن أنهم سيلتزمون بخطتهم، بعد أن يدركوا أن رجلهم قد سقط في قبضتنا.

هزَّ (حونين) رأسه في قوة، قائلاً:

- كلا بالطبع.

ثم استدرك في سرعة:

- ولكننا سنعرف كيف يفكرون؟!

تطلَّع إليه المدير في صمت متسائل، فتابع في حزم:

- في كل صراعاتنا، اعتدنا أن ندرس شخصية وأسلوب من يصارعنا، في الجهة الأخرى.. صحيح أننا لم نعرف أسماء ضباط المخابرات المصرية، إلا أننا عرفنا أساليبهم وأنماط تفكيرهم، حتى أننا كنا نطلق على كل نمط منهم اسمًا وهميًا، فهذا أسلوب (عاصم)، وذلك نمط (شاكر)، وهكذا.. أسماء قد لا ترتبط بهوية أصحابها، ولكننا ألفناها، وتعاملنا معها كما لو كانت شخصيات حقيقية.

سأله المدير في حدة:

- ولماذا اختلف الأمر هذه المرة؟!

بدت حيرة واضحة على وجه (حونين)، ولم تلبث أن أطلّت من صوته، وهو يجيب:

- لست أدرى!!.. أسلوب المصريين هذه المرة يثير دهشتي.. إنه أسلوب جديد، ونمط مختلف، ودقة لم تميِّز لعبتهم، في حرب الأيام الستة.. هناك أمر ما غير منطقي.. إما أننا نواجه ضابط حالة جديد، لم نتعامل معه من قبل، أو...

صمت بغتة، وبدا وكأنه غارق في تفكير عميق، قبل أن يكمل، وقد تضاعفت الحيرة من ملامحه وصوته ألف مرة:

- أو أنه...

لم يستطع إكمال عبارته للمرة الثانية، فاعتدل مدير المخابرات، وسأله في شيء من الحدة:

- لماذا كل هذا التردُّد؟!

رفع (حونين) عينيه إليه، وبدا أكثر حيرة، قبل أن يحسم أمره،

ويقول:

- لا أحد يعود إلى الحياة بعد مصرعه.

قال مديره في دهشة:

- ما معنى هذه العبارة؟!

لوَّح (حونين) بيده، قائلاً في عصبية:

- تلك الدقة المدهشة كان يتميَّز بها ضابط حالة واحدة، إلا أن معلوماتنا تؤكِّد أنه لم يعد صالحًا للعمل، بعد مواجهة عنيفة مع أحد رجالنا في (بيروجيا).

تراجع المدير في مقعده أكثر، وهو يقول في توتر:

- أتعني...

قاطعه (حونين)، قبل أن يكمل سؤاله:

- بالضبط.

هزَّ المدير رأسه بمنتهى القوة، قائلاً:

- مستحيل!.. ذلك الرجل أصيب بعجز كامل، ومثله لا يمكن أن

يصلح للعمل في المخابرات.

وصمت لحظة، ليدير الأمر في رأسه، قبل أن يضيف في حزم:

- ثم أن المصريين ليسوا مبتكرين إلى هذا الحد.

قال (حونين) في سرعة:

- هذا ما أثق فيه تمامًا.

التقى حاجبا المدير، وهو يعتدل على مكتبه، قائلاً:

- إذن فابذل قصارى جهدك لاستعادة صيدك الرئيسي، وإلا فلن يمكنني منع رئيس الوزراء من إحالتك إلى التقاعد هذه المرة.

احتقن وجه (حونين) مرة ثانية، ونهض يشد قامته، وهو يقول في حزم غاضب:

- لن يحدث هذا يا سيِّدي.. سأستعيد صيدي، حتى لو اضطررت لتمزيق رجل العمليات الخاصة المصري إربًا.

عاد المدير يتراجع في مقعده، قائلاً في حزم:

- افعل كل ما يلزم.

وتألقت عينا (حونين) في وحشية..

سينتزع المعلومات التي ينشدها من (رأفت)..

مهما كان الثمن..

* * *

كما يحدث عادة، خفق قلب مندوب الاتصال الشاب في قوة، وهو يدلف إلى حديقة فيلا العميد، وسرى ذلك الانبهار المعتاد في عروقه، وهو يقف أمامه، قائلاً:

- سيادة العميد (صبرى) أرسل خطابًا سريًا يا سيِّدي.

رفع العميد عينيه إليه، وقال في هدوء:

- السيِّد (صبرى) يا فتى.. استخدم لقب السيِّد فقط، عندما تشير إلى أحدنا.. والأفضل أن تستخدم الأسماء الكودية، وليس الأسماء الفعلية..

أومأ الشاب برأسه في ارتباك، فأشار إليه العميد بالجلوس على المقعد المجاور، والتقط المظروف الذي أتى به، وفضه في سرعة، وطالع محتوياته، ثم التقى حاجباه في شدة، وغرق في تفكير عميق،

وهو يطالع رقعة الشطرنج، واحترم مندوب الاتصال صمته، فلم ينبس ببنت شفة، حتى التفت إليه العميد، قائلاً:

- لم تطرح أسئلة هذه المرة.

التقط المندوب الشاب نفسًا عميقًا، وهو يقول:

- الواقع أن هذا لم يبد لائقًا، في تلك الظروف المعقدة يا سيِّدي.

تراجع العميد في مقعده، وسأله في اهتمام:

- ولماذا وصفتها بأنها معقدة؟!

التقط الشاب نفسًا عميقًا متردِّدًا متوترًا، قبل أن يجيب:

- الواقع أنها تبدو كذلك يا سيِّدي، فرقم (أربعة) سقط في قبضة الإسرائيليين، وعميلنا ما زال داخل حدودهم، محاصر بقواتهم، وليس لنا رجل واحد آخر، داخل نطاق المعركة، وكل ما فعلناه هو أن سعينا لتجنيد أحد موظفي سفارتهم في (لندن).

أومأ العميد برأسه متفهمًا، وسأله:

- وهذا يبدو لك إهدارًا للوقت والجهد.

تردَّد الشاب لحظات، قبل أن يندفع، قائلاً:

- الحقيقة أنني لا أجد أية صلة، بين ما يحدث في قلب (إسرائيل)، وما نسعى إليه في (لندن).

أدهشه أن ابتسم العميد في ارتياح، وتراجع في مقعده المتحرِّك، وهو يقول:

- عظيم.

سأله الشاب في دهشة عارمة:

- هل فاتني أمر ما يا سيِّدي؟!

أجابه العميد في سرعة:

- بالطبع.

ثم استرخى في مقعده تمامًا، وهو يضيف بابتسامة غامضة، وبصره معلَّق بالرقعة ذات اللونين الأبيض والأسود أمامه:

- هذا لأنك لا تجيد قواعد اللعبة.

تساءل الشاب في حيرة مرتبكة:

- أية لعبة؟!

اتسعت ابتسامة العميد، وحملت المزيد من الغموض، وهو يقول في هدوء شديد:

- الشطرنج.

ولم يفهم الشاب..

لم يفهم أبدًا..

* * *

لم يكد (شمونيل حاران)، موظف قسم الاستماع، في سفارة (إسرائيل) في (لندن)، يضع قدميه على أرض المطار، في (تل أبيب)، حتى تلقّت حوله في توتر بالغ، واستعاد كلمات رجل المخابرات المصري، الذي التقى به في (لندن)...

"ستكون تحت عيوننا طوال الوقت، وسنرصد كل تحركاتك وسكناتك، ولو تعاونت معنا بصدق، ستحصل على ثروة، لم يحلم بها أجدادك أنفسهم.."..

كان يشعر بتوتر بالغ، يفوق قدرته على الاحتمال، وهو يسير تحت سمع وبصر رجال الأمن في المطار، وهو يدرك في أعماقه أنه يعمل لحساب المصريين..

أو أن هذا ما يطلبونه على الأقل..

ومع توتره الشديد، راح عقله يحسب الاحتمالات والنتائج، وكل ما يمكن أن يترتّب، على تعاونه مع المصريين، في هذه المرحلة بالغة الخطورة..

ومرة أخرى استعاد كلمات رجل مخابراتهم..

"لو حاولت خيانتنا، سندرك أنك قد فعلت، وسنصل إليك، حتى لو اختبأت في قاع البحر..".

إنهم لم يدرسوه جيدًا..

من المؤكّد أنهم لم يفعلوا..

إنه ليس من النوع، الذي يمكن أن يحتمل كل هذه الضغوط..

ليس كذلك أبدًا..

راوده التردُّد بضع لحظات، حتى وجد نفسه أمام ضابط الجوازات، الذي سأله في آلية وهو يطالع جواز سفره الدبلوماسي:

- أهي أجازة عمل؟

انهار كل تردُّده، وهو يحدِّق في الزى الرسمي، الذي يرتديه ضابط

الجوازات، ثم وجد نفسه يهمس، بكل توتر الدنيا:

- أنا أعمل لحساب المصريين.

اتسعت عينا ضابط الجوازات، وحدَّق فيه بدهشة تمتزج بالاستنكار والتكذيب، فهمس في ضراعة مذعورة:

- إنني أحتمي بكم، وأخشى أن يسمعني أحد.. أرجوك.

كان همسه ضارعًا أكثر مما ينبغي، ويحمل من الذعر ما دفع ضابط الجوازات إلى أن يختلس النظر حوله، قبل أن يهمس بدوره:

- أحسنت إذ أخبرتنا.

والتقط سمَّاعة الهاتف، وأجرى اتصاله بالجهة المسئولة..

بجهاز (الموساد)...

مباشرة..

* * *

لم تكد سيارة ضابط (الموساد) (حونين) تتوقَّف أمام ذلك المبنى، الذي يضم مكتبه، داخل ساحة الجهاز، حتى وثب منها في لهفة، وسأل حارس البوَّابة:

- أين رجل السفارة؟!

أدى الحارس التحية العسكرية في قوة، وهو يجيب:

- في مكتبك، تحت الحراسة، كما أمرت يا سيِّدي!

تجاوزه (حونين) في سرعة، ووثب عبر درجات السلم إلى مكتبه في الطابق الأوَّل، واندفع داخله، وهو يقول:

- (شمونيل جارانا)؟!

هبَّ الموظف واقفًا، وأجاب في صوت، حمل كل توتره:

- أنا هو.

جلس (حونين) خلف مكتبه، وأشار إليه في صرامة، قائلاً بلهجة حملت كل غلظة انفعاله:

- قصَّ عليَّ ما حدث.

ارتبك (شمونيل) أكثر، خاصة وأن (حونين) لم يدعه للجلوس، وهو يأمره بقص روايته، وأشار بيده لحظة في صمت تمهيدي، فأضاف (حونين)، في غلظة أكثر:

- وبكل التفاصيل.

التقط (شمونيل) لعابه في صعوبة، وتمتم:

- لقد بدأ الأمر منذ أسبوع تقريبًا.

كان هذا يتوافق مع الزمن، الذي تم إلقاء القبض فيه على (رأفت)، فأومأ (حونين) برأسه إيجابًا، دون أن يتكلَّم، وإن حملت عيناه صرامة مخيفة، جعلت موظف السفارة يستطرد مرتجفًا:

- كنت أقضي السهرة في أحد الملاهي الليلية، في حي (سوهو)، عندما التقيت بشاب وسيم، سخيّ، كان يلقي حباله حول نفس الراقصة، التي تشغلني منذ فترة، ولقد تمادى في غزله لها، في تلك الليلة، حتى أنني شعرت بالغضب، وكدت أشتبك معه.

تراجع (حونين) في مقعده، وهو يستمع إليه في اهتمام، وقد بدا له هذا الأسلوب تقليديًا، بالنسبة لأسلوب (الموساد)، وإن أدهشه أن تستخدمه المخابرات المصرية أيضًا، في حين تابع (شمونيل) في توتر:

- ولست أدري كيف أمكنه أن يطفئ نيران غضبي.. بل وأن يحوّلني في لحظات قصار، من خصم إلى صديق.. لقد تنازل لي عن الراقصة، وأخبرني أنه لو علم بما أكنه لها، لما حاول مغازلتها، بل

ودعاني إلى كأس من الخمر، على الرغم من أنه لا يتناوله بأمر طبيبه، كما أخبرني.

شعر (حونين) بالحنق؛ لأن موظف السفارة سقط في فخ ساذج كهذا، فهي ألف باء عالم الجاسوسية.. شاب يظهر من العدم، ويبدي منتهى الود والكرم، ويرتبط معك بأواصر صداقة قوية سريعة، وعندما تعتاد تواجده وكرمه، يلقى إليك بالطعم..

يا له من أسلوب نمطي!..

ولسخافة العاملين في سفارات (إسرائيل)!.. لابد من تدريبهم أكثر، وإخضاعهم لدورة مكثفة، حول كل نظم الأمن، وأساليب تجنيد العملاء؛ حتى يمكنهم تلافي هذا..

أما (شمونيل)، فقد توقف عن السرد، مع تلك النظرة المزدرية، التي أطلّت من عيني (حونين)، إلى أن هذا الأخير أشار إليه إشارة صارمة، قائلاً:

- أكمل.

ازدرد الرجل لعابه، وتابع وقد تضاعف توتره:

- استمر هذا الأمر خمسة أيام، وذلك الشاب، الذي قدَّم نفسه باسم

(جون مارك)، باعتباره أمريكي الجنسية، ينفق بسخاء وكرم لا حد لهما، قبل أن يطلب منى في اليوم السادس العمل لحسابه.

اعتدل (حونين)، وهو يغمغم في شك:

- بهذه السرعة؟!

أشار الرجل بيده إشارة مبهمة، وقال:

- لقد أخبرني أنه ينبغي له أن يختبرني لفترة أطول، إلا أنه ليس لديه وقت يضيعه.

تراجع (حونين) مرة أخرى، وهو يدير الأمر في رأسه، وقد بدت له هذه الخطوة متسرعة أكثر مما ينبغي..

لا ريب في أن المصريين يحاولون طرق الحديد وهو ساخن، وأن لديهم ما يدفعهم إلى هذا..

عميلهم الذي في قبضته شديد الأهمية بالنسبة لهم إذن..

هذا أمر واضح..

واضح للغاية..

وفى انفعال، كان يفترض أن يحجبه، سأل موظف السفارة في

اهتمام:

- هل أخبرك أنه يعمل لحساب المخابرات المصرية؟!

هزَّ (شمونيل) رأسه نفيًا، وأجاب:

- بل، أخبرني أنه يدير منظمة للسلام.

باللسخافة!..

أسلوب نمطي أكثر من اللازم للتجنيد..

أسلوب، أقل ما يقال عنه، هو أنه مبتذل..

صحيح أن (الموساد) يستخدم الوسيلة نفسها، بإخبار المراد تجنيده أنه سيعمل لحساب منظمة، تسعى للسلام..

والمنظمة تحتاج إلى معلومات..

معلومات سرية للغاية..

وعندما يبدأ الشخص في منح المعلومات، يصبح متورطًا في مستنقع الخيانة..

ولا يعود هناك مجال للتراجع..

وعندئذ، لن يكون هناك ضرر من المكاشفة..

والمصارحة..

وكشف الأوراق..

ولكن (الموساد) يحتاج في المعتاد إلى فترة بين شهرين وثلاثة شهور، لبلوغ مرحلة المكاشفة..

هذا ما تحتمه حرفية الأمر..

ولكن المصريين يعملون بسرعة..

وتوتر..

ولهفة..

وهذه نقطة ضعفهم..

أكبر نقطة ضعف..

وفي اهتمام بالغ، مال (حونين) نحو (شمونيل)، يسأله:

- ومتى صارحك بأنه يعمل لحساب المخابرات المصرية؟!

ازدرد (شمونيل) لعابه مرة أخرى، وأجاب:

- هذا الصباح.

مرة أخرى، تراجع (حونين) في مقعده، وهو يفكّر في توتر بالغ شديد:

- أيُ عبث هذا، الذي يقوم به المصريون؟!

تجنيد أي شخص، من الطرف الآخر، يحتاج إلى مراحل شتى..

وإلى صبر..

ودراسة..

وحسابات دقيقة للغاية..

الأمر يحتاج في البداية إلى فرّاز..

شخص مدرَّب، يمكنه التقاط الأشخاص الصالحين للتجنيد، من المجتمعات المختلفة..

الأشخاص الذين يمكنهم بيع مبادئهم بثمن ما..

وعليه أن يجرى الاتصال الأوَّل معهم، ويدرس أسلوبهم، وقدرته على التلاعب بهم، ثم يرسل كل ما لديه عنهم إلى قسم الفحص النفسي

والتصنيف..

وهذا الأمر أيضًا يحتاج إلى وقت كاف..

فهناك، تبدأ عملية الدراسة النفسية للمرشّح، وتحديد هويته، وتصنيفه وفقًا لوسيلة السيطرة المثلى للإيقاع به..

أهي المال؟!..

أم الجنس؟!..

أم العقيدة؟!..

أم كراهية بلاده؟!..

أم سقطة يخشى أن تتكشف؟!..

هناك حتمًا وسيلة ما، لابد وأن يتوصل إليها قسم التصنيف، الذي سيرسل حتمًا خبيرًا ليلتقي بالمرشح..

ومهمة الخبير أن يتيقّن من صحة تحليل شخصية المرشّح..

وبعدئذ، تبدأ لعبة التورية..

ويكون الستار في المعتاد صحيفة كبرى، أو منظمة للسلام، أو

شركة عملاقة..

وعندما يسقط المرشح لأوّل مرة، يتحوّل إلى عميل..

وتسير الخطوات في مسارها..

والمصريون تجاوزوا كل هذا..

من الواضح أنهم يحتاجون شخصًا في قلب (إسرائيل) بأقصى سرعة، حتى ولو انطوى هذا على خطر ما..

رجلهم شديد الأهمية..

وهم مستعدون للمجازفة..

وبأي ثمن..

أي ثمن كان..

وهذه السرعة تحتم عليهم تضحيات خاصة..

وفي مثل هذه الظروف، تكون التضحيات هي..

"نصف مليون دولار"..

بتر أفكاره، لينطق العبارة في حزم، فاتسعت عينا (شمونيل)

بشدة، وانتفض جسده كله في عنف، وتراجع كالمصعوق، وهو يقول:

- كيـ.. كيف علمتم؟!

مال (حونين) نحوه على نحو مخيف، وتجاهل سؤاله تمامًا، وهو يسأله في صرامة:

- مقابل ماذا؟!

كان هذا هو السؤال، الذي ينبغي أن يسأله (حونين) منذ البداية، لذا فقد ازدرد الرجل لعابه للمرة الثالثة، عبر حلق أشد جفافًا من صحراء النقب، وغمغم:

- استخراج جواز سفر دبلوماسي، لشخص يريدون إخراجه من هنا.

التقى حاجبا (حونين) بشدة، عندما اخترق الجواب أذنيه كالرصاصة.. يا لها من فكرة عبقرية..

جواز سفر دبلوماسي إسرائيلي، في يد أي شخص، يتيح له الخروج من (إسرائيل)، إلى أية دولة في العالم، دون أن يقترب منه رجل أمن واحد..

فكرة شيطانية بحق..

استغرق (حونين) في التفكير بضع لحظات، ثم اعتدل ليلقي سؤالاً ما على موظف السفارة، إلا أنه لم يكد يفعل، حتى ارتفع رنين هاتفه، فالتقطه من جوار مكتبه في سرعة، وقال، في شيء من الخشونة:

- من المتحدث؟!

لم يكد يلقي سؤاله، حتى انعقد حاجباه بمنتهى الشدة..

فما سمعه، من الطرف الآخر، كان مفاجئًا..

إلى أقصى حد.

* * *

3 - ارتباك..

الموقف بدا شديد التعقيد، على رقعة الشطرنج..

صحيح أن العميد كان يدير جانبي الدور، إلا أنه كان يمتلك قدرة فريدة على الانفصال، وتقمص دور الخصم، عندما يدير المائدة، وينقل اللعب، من الأبيض إلى الأسود..

وفى كل لعبة، كان يدرس كل الاحتمالات..

وينافس نفسه..

بمنتهى القوة..

والحنكة..

والبراعة..

"لست أدري كيف تفعل هذا.."..

نطقها اللواء في شيء من الدعابة، وهو يدلف إلى حديقة الفيلا الصغيرة، وأشار بيده في الهواء، مكملاً:

- لا ريب في أن جيرانك يتصورونك مجرد قعيد مجنون، لا يفارق رقعة الشطرنج قط.

اعتدل العميد، وابتسم، قائلاً:

- أظن رأيهم هذا يفيد عملنا كثيرًا.

كان اللواء قد جلس إلى جواره، فاستدار إليه، متابعًا بابتسامة هادئة:

- من يمكن أن يشك في قعيد معتوه.

ضحك اللواء، وقال:

- لا أحد بالتأكيد.

ثم صمت لحظة، ومال نحوه، متسائلاً بصوت خافت:

- ولكن الموقف في (تل أبيب) مرتبك بحق.

أشار العميد بيده، قائلاً:

- المفترض أن يبدو كذلك لهم، وليس لنا.

اعتدل اللواء، وهو يتطلّع إليه في صمت، قبل أن يقول:

- العميد (صبري) قدّم تقريرًا مما نفذه في (لندن).

غمغم العميد:

- الرسميات تحتم هذا.

أضاف اللواء:

- والكل يستنكر هذا بشدة.

سأله العميد في اهتمام:

- حقًا؟!

كان اللواء يتوقع شيئًا من الدهشة أو الاستنكار، لذا فقد قال في شيء من العصبية:

- الاحتمال الأكبر أن موظف السفارة الإسرائيلية سيخوننا، فور وصوله إلى (تل أبيب).

أومأ العميد برأسه موافقًا، وهو يقول:

- بالتأكيد.

سأله اللواء في دهشة:

- لماذا سعيت إلى تجنيده إذن؟!

التقط العميد نفسًا عميقًا، وأشار بيده، مجيبًا:

- كما قلتها.. لبث الارتباك.

التقى حاجبا اللواء، وهو يتطلّع إليه في صمت قلق، قبل أن يقول في ضيق:

- هل وضعت خطة كاملة، أم أنك ترتجل خطواتك هذه المرة.

هزّ العميد رأسه نفيًا في بطء، وأجاب:

- الارتجال يتنافى وقواعد اللعبة يا سيادة اللواء.. فمع عدو شديد الذكاء والدهاء، لابد وأن تحسب حساب كل خطوة.

ثم مال هو نحو اللواء، مضيفًا بمنتهى الحزم..

- وحتى اللعبة الأخيرة.

سأله اللواء في ارتياح:

- إذن فأنت تعلم كيف سينتهي الأمر؟!

اعتدل العميد، مجيبًا:

- بإذن الله (عزَّ وجلَّ)..

وران عليهما صمت عميق بعدها..

صمت جميع العقلين فائقين..

وخطة محكمة..

ورقعة شطرنج..

* ** ** *

على الرغم من التدريبات الشاقة والعنيفة، التي تلقاها (رأفت)، إبان التحاقه بالقوات الخاصة، ومن التدريبات الإضافية المكثفة، التي حتمها انضمامه إلى قسم المتخصصين، إلا أنه كان يشعر بمنتهى الإرهاق والألم، في تلك اللحظة، التي دخل فيها (حونين) حجرة الاستجواب، ليسأل في توتر:

- هل قرَّر حقًا أن يتكلَّم؟!

ابتسم مفعول الاستجواب، وقال في شيء من الزهو:

- أعترف أعترف إن قدرته على الاحتمال مدهشة يا سيدي، فأقوى الرجال لم يصمد أمام أساليبي لأكثر من يومين، وهذا المصري احتمل أسبوعًا

كاملاً.

غمغم (حونين) في حنق:

- كانت ينبغي أن تستخدموا مصل الحقيقة، منذ اللحظة الأولى.

هزَّ الرجل رأسه نفيًا، وقال:

- خبرتنا علمتنا أن المصريين يدرسون خطة احتياطية بعمق شديد، حتى أنهم لا يعترفون بسواها، حتى لو وضعتهم تحت تأثير (بنتوثال الصوديوم).

مطَّ (حونين) شفتيه، وكأنما لا يقتنعه هذا، ثم اتجه نحو (رأفت)، وجذبه من شعره، ليجبره على رفع رأسه، وهو يسأله في غلظة قاسية:

- ماذا لديك؟!

حاول (رأفت) أن يتكلَّم..

بل حاول حتى أن يفتح عينيه..

ولكنه لم يفلح في هذا أو ذاك..

عيناه المتورمتان، وشفتاه المشققتان منعتاه من التفوه بحرف

واحد..

وأدرك (حونين) هذا، فأفلت شعره، وقال في حدة:

- أعطوه بعض الطعام والشراب.. أريد أن أسمع ما لديه، خلال نصف الساعة على الأكثر.

غمغم مسئول الاستجواب:

- لقد أخضعناه لحظر الطعام والشراب، منذ...

قاطعه (حونين) في حدة:

- هل سمعتني؟!

اعتدل الرجل في قوة، قائلاً:

- أوامرك يا سيِّدي.

ثم صاح بالجنود المرافقين:

- حلوا قيود الأسير.

تركهم (حونين)، وغادر حجرة الاستجواب، قائلاً في صرامة:

- نصف ساعة على الأكثر.

كان يشعر بالكثير من الإثارة، وهو يطلب مقابلة مدير (الموساد)، ولم يكد يلتقي به، حتى أبلغه كل ما لديه من أخبار..

وفى اهتمام بالغ، استمع الرجل إليه، ثم سأله:

- وماذا تنوى أن تفعل؟!

أشار (حونين) بيده، مجيبًا:

- بالنسبة لرجل العمليات الخاصة، سنحصل على كل ما لديه، ونتيقَّن من صحته، ثم نتخلَّص منه.

هزّ المدير رأسه في قوة، قائلاً:

- خطأ.

تطلَّع إليه (حونين) في دهشة، فتابع في حزم:

- لا قيمة لعميل ميت.. ستعتصر كل ما لديه من معلومات، أشك كثيرًا في أهميتها، وبعدها سيبدأ الصليب الأحمر مفاوضاته مع المصريين، لنسلمه لهم، مقابل الطيارين الأسيرين لديهم.

مطَّ (حونين) شفتيه، كما اعتاد كلما لم يرق له أمر ما، وغمغم في حنق:

- كما ترى يا سيّدي.

أشار المدير بيده، قائلاً:

- إنه مجرّد رجل عمليات خاصة، ولن تجد لديه ما يشبعك.. بل لن يعرف على الأرجح أين (دافيد شولومون) الآن، فألف باء العمل يقتضي نقله إلى وكر جديد.

زفر (حونين) في توتر؛ لأن رئيسه منعه من إراقة دماء مصرية، وتمتم:

- فليكن.

تراجع المدير في مقعده، وسأله:

- وماذا عن خطة جواز السفر الدبلوماسي؟!

لوّح (حونين) بيده، في حركة مسرحية، وقال:

- سنتركها تسير على وتيرتها.

بدا الاهتمام على المدير، وهو يسأل:

- حقًا؟!

أجابه في حزم:

- هذا أفضل ما نفعله، فموظف السفارة سيواصل تعاونه مع المصريين، وسيلتقي بمندوب مجموعة الاتصال الفلسطينية، ويسلمه جواز السفر الدبلوماسي، والأختام المقلدة المطلوبة، وسيتبع رجالنا مندوب مجموعة الاتصال، للتوقع بالمخربين العرب في ضربة ساحقة، بعد أن تكشف مخبأهم، وفي الوقت ذاته، سننتظر محاولة (شولومون)، للخروج من (إسرائيل) بجواز سفر دبلوماسي زائف، ونلقي القبض عليه، وهكذا نكون قد ضربنا عصفورين بحجر واحد.

مط المدير شفتيه، وهو يهز رأسه مستحسنًا، ثم سأل في اهتمام:

- ومتى وأين يلتقي موظف السفارة بمندوب مجموعة الاتصال الفلسطينية؟!

ألقى (حونين) نظرة على ساعته، قبل أن يجيب في ارتياح:

- الآن ـ الآن.

وارتفع حاجبا مدير (الموساد) بمزيج من الدهشة والإعجاب.. فرجله كان يدير الأمور بحنكة..

وبراعة..

وسرعة..

منتهى السرعة..

* * *

"لا يمكننا أن نقف ساكنين"..

هتف (وليد) بالعبارة في عصبية، وهو يلوِّح بيديه معًا في حدة، فرفع (غسَّان) عينيه إليه، قائلاً في هدوء:

- وماذا يمكننا أن نفعل؟!

هتف:

- أي شيء.. لن نترك (رأفت) في قبضتهم هكذا.

صمت (غسَّان) لحظة، قبل أن يجيب في اهتمام:

- اسمعني جيدًا يا سيِّد (وليد).. ربما تكون عميلاً ممتازًا، أجاد دوره إلى حد التفوّق، عندما تم زرعه في المجتمع الإسرائيلي.. وربما أصبحت بهذا خبيرًا بطباعهم وحياتهم ولغتهم، ولكن كل هذا شيء، وقواعد لعبة الصراع شيء آخر تمامًا.. إنها ليست مجرد لعبة عادية.. بل لعبة ثعالب.. عقول ماكرة، تموج بالخبرة والبراعة والدهاء، تواجه

بعضها البعض.. ضربات غير متوازية، تعمل على نحو مزدوج؛ ففي كل خطوة، عليك أن تضرب ضربة، وتتفادى في الوقت ذاته ضربات الطرف الآخر، مع ثقتك في أنه لن يقلّ عنك براعة ودهاءً.. بل وعليك أحيانًا أن تتوقّع ضرباته القادمة، وتستعد لها بضربات وقائية، أو فخ محكم، وأبرع ما تلجأ إليه، في بعض الجولات، هو أن تستغل براعة الخصم نفسها؛ لتوجيه ضربة إليه.. هل تفهم ما تحتمه لعبة كهذه؟!

تطلّع إليه (وليد) في صمت، فتابع في حزم:

- تحتاج، أكثر ما تحتاج، إلى دقة متناهية، والتزام بلا حدود، وعقل واحد يدير ساحة المعركة كلها، ويلم بكل الخيوط.

غمغم (وليد)، في شيء من العصبية:

- ولماذا عقل واحد؟!

أجاب في سرعة:

- لأن هذا ما تحتمه قواعد اللعبة.

ثم أشار إلى رقعة شطرنج قريبة، ملقاة في إهمال، وتابع في مزيد من الحزم:

- هل يمكنك أن تتخيَّل رقعة شطرنج، تتحرَّك كل قطعة فيها

بإرادتها الحرة، ودون خطة مشتركة، وعقل واحد؟!.. ما من لاعب، مهما بلغت براعته وحنكته، يمكن أن يربح مثل هذه اللعبة.. الوسيلة الوحيدة هي أن يكون هناك لاعب واحد يدير اللعبة، ويضع كل قطعة في المربَّع المناسب لها تمامًا، وفقًا لتوقيت دقيق، وحسابات شديدة التعقيد.

توقف ليشير حوله، مضيفًا:

- وهذا ما يحدث في عالمنا.

خفض (وليد) عينيه، وعجز عن كبح توتره، فعض شفته السفلى، في حين تابع (غسَّان):

- سنلتزم بخطة (القاهرة)، وسنتبع الجدول الزمنى الدقيق، دون أن نسأل عن التفاصيل، وبطاعة والتزام تامين.. هذه هي الوسيلة الوحيدة للنصر.

رفع (وليد) عينيه، يسأل في عصبية:

- وماذا لو تخلَّص الإسرائيليون من (فضل)، قبل أن تكتمل خطة (القاهرة).

كان هذا هو الاسم، الذي يعرفون به (رأفت)، لذا فقد صمت

(غسَّان) بضع لحظات، ثم أجاب في حزم:

- ليس أمامنا سوى الطاعة.

وشرد ببصره لحظة، مضيفًا:

- وليفعل الله (سبحانه وتعالى) ما فيه الخير.

صمت الاثنان بعدها، ولكن فكرهما اتجه نحو هدف واحد..

(رأفت)..

* * *

تراجع (حونين) في مقعده، في زهو متغطرس واضح، وتطلَّع إلى (رأفت) بضع لحظات في صمت، وبنظرة صارمة قاسية، قبل أن يسأله في غلظة:

- ماذا لديك؟!

شعر (رأفت) برأسه يدور بشدة، وعجزت عيناه عن الرؤية في وضوح، وهو يتطلَّع إلى (حونين)، قائلاً:

- لن تجد لدى الكثير.

مطَّ (حونين) شفتيه، قائلاً في ازدراء:

- أعلم هذا؛ فلست سوى رجل عمليات خاصة، ثم الاستعانة به، للقيام بالجزء الحركي من المهمة.

تمتم (رأفت) في إرهاق:

- بالضبط.

كان مسئول الاستجواب قد منحه من الطعام والشراب، ما يكفى بالكاد لوقوفه على قدميه، بعد أسبوع كامل من التعذيب، والحرمان من النوم والغذاء، والاستجواب تحت الأضواء الكاشفة القوية لساعات طويلة، والمياه المثلجة القذرة، وعشرات من وسائل الضغط الأخرى، وعلى الرغم من هذا، فقد استنفر كل ما تبقى من إرادته وقوته، و(حونين) يسأله، وهو يعبث بمسدسه:

- بم يمكنك أن تفيدنا إذن؟!.

ازدرد (رأفت) لعابه القليل، وبذل جهدًا خرافيًا لتصفية عقله، قبل أن يجيب في تردُّد:

- ربما أعرف كيف سيخرجون (دافيد) من هنا.

مال (حونين) نحوه، متسائلاً:

- (دافيد شولومون)؟!..

أومأ (رأفت) برأسه إيجابًا، فكتم (حونين) انفعاله في براعة، وهو يسأله:

- وكيف سيفعلون؟!

صمت (رأفت) لحظة، بدت لـ(حونين) أشبه بدهر كامل، قبل أن يجيب في اقتضاب:

- بجواز سفر.

شعر (حونين) بقلبه يخفق في عنف، عندما سمع الجواب، ولكنه كرجل مخابرات محترف، كتم انفعاله هذا في أعماقه، وحافظ على هدوء صوته، وهو يقول:

- جواز سفر؟!.. وهل يبدو لك هذا منطقيًا؟!

غمغم (رأفت):

- إنه كذلك.

كان (حونين) واثقًا من أنه على حق؛ فهذا يتفق مع ما لديه من

معلومات، من مصدره الآخر، إلا أنه تظاهر بالعكس، وهو يقول في صرامة:

- هراء.. (إسرائيل) كلها تبحث عن ذلك الجاسوس، وصوره في كل منافذها، حتى البرية منها، ومن المستحيل أن يغادرها بجواز سفر عادى.

أجابه (رافت) في إرهاق:

- ليس عاديًا.

وصمت لحظة، قبل أن يضيف:

- إنه جواز سفر دبلوماسي.

كاد (حونين) يقفز من مقعده، عندما سمع العبارة، حتى أنه بذل جهدًا خرافيًا ليبقى في مكانه، وهو يقول بلهجة متماسكة:

- ليس من السهل الحصول على جواز سفر دبلوماسي، لدولة حليفة لـ(إسرائيل).

هزَّ (رافت) رأسه، قائلاً:

- بل هو جواز سفر دبلوماسي إسرائيلي.

وتفجَّر شعور هائل بالنصر، في كل ذرة من كيان (حونين)..

إذن فالمعلومة صحيحة..

المصريون استخدموا تقنية مدهشة هذه المرة..

مع جواز سفر دبلوماسي، وتنكُّر مدهش، واللغة العبرية، التى يجيدها (دافيد)، لن يكون خروجه من (إسرائيل) عسيرًا..

ومن منافذها الرسمية..

تراجع (حونين) في مقعده، وتطلَّع إلى (رافت) لحظات في صمت، في محاولة لكتمان توتره وانفعاله، قبل أن يقول:

- قصتك تبدو أشبه برواية احتياطية ملفقة.

هزَّ (رافت) رأسه، بكل ما تبقى له من قوة، وهو يقول:

- ولكنها الحقيقة.

كان (حونين) واثقًا من هذا، إلا أنه، وعلى الرغم من ذلك، قال في شيء من الصرامة:

- كيف أتأكَّد من صحة روايتك؟!

زفر (رأفت)، مغمغمًا:

- لست أدرى كيف... ولكنها الحقيقة.

صمت (حونين) بضع لحظات أخرى، قبل أن يميل نحوه، ويقول بمنتهى القسوة:

- الوسيلة الوحيدة، لإثبات صحة قصتك، هي أن نوقع بالجاسوس، وهو يحاول الخروج بجواز سفر دبلوماسي بالفعل، فإذا ما حدث هذا، سأعمل على أن يكون سجنك هنا هادئًا، أما لو كنت مخادعًا كاذبًا.

صمت، دون أن يكمل عبارته، وتطلّع إلى وجه (رأفت) بضع لحظات في صرامة شديدة، قبل أن يضيف في قسوة بالغة:

- فمهما كانت القواعد، ومهما كانت الفائدة المرجوة، من بقائك على قيد الحياة، فسأطلق النار على رأسك بنفسي، متحملاً كافة العواقب.

صمت (رأفت) لحظات، وهو يتطلّع إليه بنظرة خاوية، ثم لم يلبث أن تمتم في تهالك:

- اتفقنا.

وكان هذا آخر ما تبادلاه من حديث..

في ذلك اليوم..

* * *

وقف مندوب الاتصال الشاب في احترام بالغ، أمام العميد، في حجرة مكتبه الخاصة، وقدَّم له ملفًا صغيرًا، داخل مظروف، يحوى في زاويته عبارة (سرى للغاية)، وهو يقول:

- خطاب سرى من سفارتنا في (لندن) يا سيادة العميد.

ابتسم العميد، وهو يلتقط المظروف منه، فارتبك الشاب، وقال مستدركًا:

- لا تنسى عدم ذكر الرتب.

غمغم الشاب:

- بالتأكيد يا سيِّدي.. بالتأكيد.

فضَّ العميد المظروف، وطالع محتوياته بمنتهى الاهتمام، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة هادئة، وهو يغمغم:

- عظيم يا (صبري).. عظيم.

التهب شوق الشاب، بسؤاله عما تعنيه العبارة، ولكنه لاذ بالصمت تمامًا، وهو يتطلّع إلى العميد، الذي طوى الملف، ووضعه على مكتبه، ثم التفت إلى رقعة الشطرنج، وتطلّع إليها بضع لحظات، قبل أن يقول فجأة:

- هل تعلم ما أبرع مناورة في الشطرنج؟!

اعتدل الشاب، متسائلاً:

- ما هي يا سيِّدي؟!

أشار العميد إلى الرقعة، مجيبًا:

- الخداع المتسلّل.

كان الشاب يجيد لعبة الشطرنج، إلا أنه لم يسمع بهذه المناورة من قبل، مما جعله يتساءل في حذر:

- ماذا؟!

أشار العميد إلى الرقعة مرة ثانية، وهو يقول:

- لاعب الشطرنج الماهر، ينصب فخًا بارعًا لخصمه، فيقوده إلى هدف ما، ويقوم بتحركات مزدوجة المغزى، في حين يتسلّل خفيه،

لتنفيذ هدف مختلف تمامًا.

بدا للشاب أنه قد استوعب الفكرة، فقال في حماس:

- فهمت يا سيِّدي.

تراجع العميد في مقعده، وتطلّع إليه في صمت، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة، وهو يقول:

- حقًا؟!

أجاب الشاب بنفس الحماس:

- إنه أسلوب مألوف في اللعبة، وإن لم أطلق عليه الاسم نفسه، فتحركاتك كلها توحي بأنك تستهدف قطعة ما، بحيث ينشغل خصمك بحمايتها، في حين تكون لديك خطة فرعية، للهجوم على قطعة مختلفة تمامًا.

مال العميد، يستمع إليه في اهتمام، وهو يقول:

- أو لحسم المعركة.

هتف الشاب:

- بالضبط.

تراجع العميد في مقعده، في صمت تام، وبدا شديد الاستغراق في التفكير، وهو يتطلّع إلى الشاب، قبل أن يسأله:

- وماذا لو أن خصمك يجيد قواعد اللعبة بدوره، ويمكنه استنباط ما تفعله؟!..

أجاب الشاب في سرعة:

- أحاول أن أكون أكثر دهاءً منه.

بدت ابتسامة العميد مختلفة، وهو يقول:

- أو تكسر القواعد.

تردّد الشاب، وهو يسأله:

- أية قواعد؟!

اتسعت ابتسامته، وهو يجيب:

- قواعد اللعبة.

في هذه المرة، بدت ابتسامته غامضة..

بل شديدة الغموض..

للغاية.

* * *

4 - ثعالب وذئاب..

على الرغم من الليلة الطويلة، التي قضاها (شمونيل)، في تدريبات متصلة، وتعليمات لا حصر لها، لم يستطع منع ذلك التوتر الشديد، الذي سرى في أعماقه، وهو يصل بالحافلة العامة إلى (القدس)..

كانت هذه تعليمات المصريين..

أن يذهب بحافلة عامة إلى هناك، مع جواز السفر الدبلوماسي، وصور الأختام الرسمية..

وفى (القدس)، اتجه إلى العنوان، الذي جعلوه يحفظه عن ظهر قلب في (لندن)، وذهنه يسترجع كلمات (حونين)...

"ستكون تحت بصرنا طوال الوقت، على أن تنفذ ما طلبه منك المصريون بمنتهى الدقة.. التقى بمندوب الفلسطينيين، وسلمه كل ما لديك من أوراق وصور وأختام، واترك البقية لنا.."..

لم يكن يدرى كيف سيراقبه الإسرائيليون، ولا كيف يجازفون

بتسليم وثائق شديدة الخطورة كهذه للعرب، إلا أنه كان واثقًا من أن (الموساد) قد اتخذ كافة الاحتياطات اللازمة؛ لتأمين الموقف كله..

لابد وأن يثق في هذا..

لقد ألقى أوراقه كلها على مائدتهم، ولا ينبغي أن يخذلوه..

بذل جهدًا ليعتصر عقله، ويستعيد تعليمات المصريين، حتى لا يدركوا أنه يعمل كجاسوس مزدوج، وقطع الطرقات المتفق عليها، حتى بلغ ذلك الحى الهادئ، في ضواحي المدينة، وجلس عند موقف المواصلات العامة، في انتظار من سيجرى الاتصال معه..

المصريون أخبروه أن الاتصال سيتم، بين الثانية عشرة والواحدة ظهرًا، ولقنوه عبارة التعارف، ولكنهم لم يخبروه من سيلتقي به بالضبط..

وها هو ذا ينتظر، بكل توتر الدنيا..

كلما مرَّ به شخص ما، تصوَّر أنه المندوب المنتظر..

كل مرة، تتأهَّب حواسه..

وتتوتَّر..

وتشتعل..

ثم لا يحدث شيئًا..

أي شيء..

وكلما جلس أحد إلى جواره التوتر يسرى في عروقه، وكل ذرة في كيانه ترتجف، ويتمنى إما أن يكون هو المندوب المنتظر، أو ينصرف بسرعة قبل وصوله..

وذلك الصبيّ بالذات، أثار أعصابه في شدة..

صبيٌ في الثانية عشرة من عمره تقريبًا، جلس على بُعد أقل من نصف المتر منه، حاملاً كرة مطاطية نصف مهترئة، يعبث بها في إيقاع رتيب، استفز كل ذرة من كيانه..

وراحت الدقائق تمضى في بطء شديد..

عقارب الساعة تقترب من الواحدة..

وتقترب..

وتقترب..

وذلك الصبيّ المستفز لا يتوقف عن اللهو بكرته لحظة واحدة..

ومندوب الاتصال لم يصل..

وبدأ (شمونيل) يفقد أعصابه رويدًا رويدًا، وراودته فكرة الانصراف، دون أن يتم مهمته، خاصة وأن عقارب الساعة كانت تقترب من الواحدة، باستثناء دقائق قليلة..

وبحركة عابثة، ألقى الصبيّ كرته نحوه، ففجَّر كل ما تبقى من أعصابه، وصاح في غضب:

- سأمزق هذه الكرة.

اتجه الصبيّ إليه، غير مبال بصيحته، والتقط كرته، مغمغمًا:

- معذرة.

كاد يلقى الكرة في وجهه غضبًا، لولا أن أضاف في هدوء:

- ولكن الحائط يبقى دون دموع.

كان الصبي ينطق، بمنتهى الهدوء والبساطة، العبارة الكودية المتفق عليها، فحدَّق (شمونيل) في وجهه بذهول، وحدَّق في عينيه الواسعتين البريئتين، قبل أن يغمغم بصوت مرتجف:

- الدموع تذرفها القلوب.

وبنفس الهدوء والبساطة، قال الصبي العربي بالعبرية:

- والجدران بلا قلوب.

بهذا اكتملت عبارات التعارف، وأصبح على (شمونيل) أن يقوم بالخطوة التالية.

وأن يسلمه جواز السفر، وصور الأختام الرسمية..

تردَّد لحظة، وهو ما زال يحدِّق في الصبيّ، الذي حمل كرته بحركة بارعة، أخفت أيديهما عن الأنظار، وقال بنفس الهدوء:

- المفترض أن تعطيني شيئًا.

ارتجفت يدا (شمونيل)، وهو يناوله المظروف، وتساءل في أعمق أعماقه: هل يتابع رجال (الموساد) الموقف بالفعل..

ولقد التقط منه الصبيّ المظروف، ودس يده داخل الكرة المهترئة، والتقط مظروفا مماثلاً، ناوله له، دون أن ينطق كلمة واحدة، ثم حمل كرته، وانصرف بنفس الهدوء..

ولثوان، ظلّ (شمونيل) جامدًا في مكانه، يتابع الصبيّ، حتى اختفى عند الناصية، ثم نهض وهو يشعر بثقل شديد في ساقيه، ودفعهما

دفعًا، ليبتعد عن المكان، وكأنما زاد عمره ألف عام في لحظات..

وعند أول ناصية، اصطدم به رجل متين البنيان، وهمس في أذنه في صرامة:

- لماذا تركت موقعك؟!

تلفّت (شمونيل) حوله في ذعر، خشية أن يكون أحد العرب قد لمح أو فهم الموقف، وهمس بصوت مرتجف:

- لقد حصلوا على بغيتهم.

هتف الرجل:

- ماذا؟!

وعلى الرغم من أنهما في منتصف الطريق، أمسك الرجل كتفيَ موظف السفارة الإسرائيلية في قسوة، هاتفًا:

- كيف؟!.. ومتى؟!

شرح له (شمونيل) ما حدث، بكلمات قليلة موجزة، فامتقع وجه الرجل، ودفعه جانبًا، وانطلق يعدو نحو البقعة، التي كان يجلس فيها موظف السفارة، وهو ينتزع جهاز لاسلكي من حزامه، ويصرخ عبره

في انفعال..

وخلال أقل من دقيقة واحدة، كان المكان يكتظ برجال (الموساد)، وجنود الجيش الإسرائيلي..

انتشروا في المنطقة كلها، بتكنيك سريع مدروس، ودفع بعضهم موظف السفارة داخل سيارة كبيرة، في حين اندفع الباقون يحاصرون الحى كله، ويبحثون عن صبيّ عربي، يحمل كرة مهترئة، ومظروفا بالغ الخطورة..

ولتغطية الهدف الفعلي، قاموا بتفتيش كل المارة، بحجة وجود بلاغ عن عملية انتحارية موشكة..

ولكن ذلك الصبيّ وكرته كانا قد اختفيا..

اختفيا تمامًا..

ودون أدنى أثر..

* * *

"حتى الصبيّة؟!.."..

هتف مدير (الموساد) بالكلمة في غضب، وهو يدور في مكتبه

كذنب جريح، قبل أن يستدير في حدة، ويلوِّح بسبَّابته في وجه (حونين)، مستطردًا:

- ماذا أصابك هذه المرة يا (حونين)؟!.. كنت أظنك أكثر رجالي حنكة وبراعة، وها أنتذا تتحوَّل إلى لعبة تافهة، بين أصابع المصريين.

احتقن وجه (شمونيل)، وهو يقول:

- أسلوبهم هذه المرة يختلف.

صاح المدير:

- هذا ليس عذرًا.. نحن رجال مخابرات.. هل تدرك ما تعنيه الكلمة؟!.. كل شيء في عالمنا متاح، والخداع ليس أساسًا فحسب، ولكنه اللبنة الأساسية لكل عملنا، ولكي نربح معاركنا، ينبغي أن ندرك ونتفادى كل وسائل الخداع، مهما بلغت براعتها.

لوَّح (حونين) بذراعه، قائلاً:

- لقد اتخذنا كل الاحتياطات، وزرعنا رجالنا في كل شبر، وراقبنا كل سنتيمتر من الحى، ولم يخطر ببالنا قط أن...

قاطعه المدير في حدة:

- وهنا يكمن الخطأ.

انعقد حاجبا (حونين)، في توتر عصبي، فتابع مديره بنفس الغضب:

- لا يوجد في عالمنا أي شيء يمكن استبعاده.. كان ينبغي أن تتوقَّع كل شيء.. وأي شيء.. عالمنا كله يقوم على إتيان حركة جديدة غير متوقعة، والرابح فيه من يتمتع بخيال جامح، وقدرة ابتكارية مدهشة، وهذا كل ما افتقرتم إليه في هذه الجولة.

التقى حاجبا (حونين) أكثر، وهو يقول في صرامة عصبية:

- إنها ليست نهاية المباراة.

هتف المدير مستنكرًا:

- مباراة؟!.. ما نخوضه ليس مجرد مباراة يا أدون (حونين)، فكم المعلومات والمعارف، التي حصل عليها (دافيد شولومون)، قبل أن يختفي، يعد بالغ الخطورة، إلى أقصى حد.. لا تنسى أن الرجل كان صديقًا حميمًا، لمعظم جنرالات جيش الدفاع، وكبار رجال الدولة، والسياسة والإعلام، مما يعنى أنه موسوعة حية للنظم الإسرائيلية، وخروجه بكل ما لديه؛ سيغير توازن القوى بيننا وبين المصريين

بشدة.

غمغم (حونين) في حزم:

- لن يخرج.

ثم رفع عينيه إلى المدير، مضيفًا:

- حيًا.

بدا المدير شديد الصرامة، وهو يقول:

- أتعشَّم هذا.

نهض (حونين)، قائلاً:

- ربما ربح المصريون جولة؛ لأنهم أجادوا اللعبة، أو لأننا أبخسناهم قدرهم، ولكنني أعدك يا سيِّدي، أنها آخر جولة يربحونها.. آخر جولة على الإطلاق.

نطقها وهو يُعنيها..

بل يعني كل حرف منها.

* * *

"مازلنا نتساءل، كيف ستُخرج (وليد)، من قلب (إسرائيل).."..

نطق اللواء عبارته في قلق واضح، وهو يواجه العميد، في حجرة مكتب هذا الأخير، الذي أجاب في بساطة وهدوء:

- من المطار مباشرة.

تضاعف قلق اللواء، وهو يسأل:

- وكيف هذا؟!

أشار العميد بيده، مجيبًا:

- بجواز سفر دبلوماسي، وحصانة تمنع اتخاذ أية إجراءات ضده.

التقى حاجبا اللواء، وهو يقول في توتر:

- لعبة شديدة الخطورة.

وافقه العميد بإيماءة من رأسه، وقال في هدوء:

- بالتأكيد، فأنا أؤمن بأنه كلما زادت المخاطرة، زاد الربح.

مطَّ اللواء شفتيه، وهو يقول:

- ربما ينطبق هذا على عالم التجارة والاقتصاد، أما في عالمنا،

فمهمتنا أن نخفض المخاطر، إلى أدنى حدٍ ممكن.

مرة أخرى، وافقه العميد بإيماءة من رأسه، قائلاً:

- بالضبط.

بدت الحيرة واضحة على وجه اللواء، وهو يعتدل في مقعده، ويتطلّع إلى العميد بضع لحظات، ثم يقول في حدة:

- هل المفترض أن أفهم هذا التناقض؟!

اتسعت ابتسامة العميد، وهو يقول:

- معذرة يا سيادة اللواء، ولكن لو أنك فهمت هذا التناقض، لما كانت خطة ناجحة.

سأله اللواء في حذر:

- ماذا تعنى؟!

اعتدل العميد، قائلاً:

- أعنى أننا نواجه خصمًا شديد الذكاء، ولديه خبرة طويلة في مضمارنا، ولو أننا اتبعنا القواعد، في صراعنا معه، سنكون قد فقدنا أهم عامل من عوامل النجاح.

ثم أشار بسبّابته، مضيفًا:

- عامل المفاجأة.

قال اللواء في حزم:

- لن تكون مفاجأة كاملة؛ فالإسرائيليون سيراقبون كل منافذهم حتمًا، وسيكونون شديدي الدقة، في فحص كل من يحاول الخروج.

هزّ العميد كتفيه، قائلاً:

- إنني أتوقّع منهم أكثر من هذا.

هتف اللواء:

- حقًا؟!

عاد العميد يبتسم، نفس الابتسامة الغامضة، وهو يقول:

- المفترض أن (وليد) صيد سمين للغاية، ولن يجازفوا بمنحه أية فرصة للخروج، مما يعنى أنهم سيضاعفون الإجراءات مرتين على الأقل، حتى يسقط في أيديهم.

سأله اللواء:

- وهل تعتقد، على الرغم من هذا، أنه سينجح في الخروج من (إسرائيل)، بجواز سفر دبلوماسي زائف؟

أومأ العميد برأسه إيجابًا، وقال في هدوء:

- بالتأكيد.

وهنا، تضاعفت حيرة اللواء ألف مرة، وهو يتطلّع إليه في صمت، وعقله يطرح ألف سؤال..

بل ألف ألف سؤال..

على الأقل..

* * *

"ما رأيك في هيئتك الجديدة؟!.."..

تطلّع (وليد) إلى المرآة، وطالع صورته فيها، وملامحه التي تغيَّرت تمامًا، على يد خبير التنكر، الذي استعانت به مجموعة الاتصال الفلسطينية، وغمغم:

- أكاد أنكر هيئتي.

ابتسم (غسّان)، وهو يقول:

- وهو المطلوب.

نقل (وليد) بصره من المرآة، إلى الصورة في جواز السفر الدبلوماسي الذي يمسك به، وقال:

- أظنني أشبهه تمامًا.

التقط (غسّان) جواز السفر، وقال:

- في رأيي أن (القاهرة) قد انتقته بالتحديد، حتى يكون هذا ممكنًا.

غمغم (وليد):

- ليس لدى أدنى شك في هذا.

ثم اعتدل، يسأله:

- وماذا عن (رافت)؟!

صمت (غسّان) لحظات، قبل أن يجيب:

- من المؤكَّد أنهم سيتولون أمره.

قال (وليد) في عصبية:

- أو يضطرون إلى التضحية به.

هزَّ (غسَّان) رأسه نفيًا في قوة، وهو يقول:

- ليس هذا أسلوب (القاهرة).

تساءل (وليد):

- كيف سيخرجونه إذن؟!

تراجع (غسَّان)، وارتكن بظهره إلى الجدار، وأسند مدفعه الآلي إلى جواره، وهو يقول:

- لست أعتقد أن إخراج (رأفت) من هنا سيكون بصعوبة إخراجك؛ فبالنسبة للإسرائيليين، أنت جاسوس رفيع المستوى، لا يمكن أن يسمحوا بعودتك بكل ما لديك إلى المصريين، أما هو، فمجرد عميل مؤقت، سيسعون حتمًا إلى استبداله بأحد أسراهم لديكم.

غمغم (وليد):

- أتمنَّى أن يفعلوا هذا.

تمتم (غسَّان):

- وأنا أيضًا.

ثم ألقى نظرة على ساعته، قبل أن يضيف:

- ولكن عليك الآن أن تلقي كل هذا خلف ظهرك، وتعمل على أن تسترخي تمامًا؛ لأنه من المفترض أن تغادر من مطار (تل أبيب)، بعد اثنتي عشرة ساعة.

غمغم (وليد) في توتر شديد:

- من المطار؟!.. وبجواز سفر دبلوماسي؟!

أشار إليه (غسَّان)، قائلاً:

- بالضبط.

تراجع (وليد) في مقعده، وألقى نظرة أخرى، على صورته الجديدة في المرآة، ثم حاول أن يسترخي، كما طلب منه (غسَّان)..

ولكن الاسترخاء بدا مستحيلاً..

إلى أقصى حد.

* * *

5 - لدواعي الأمن..

"أأنت واثق من قدرتك على ضبط الموقف؟!.."

ألقى مدير (الموساد) العبارة، في شيء من الصرامة والشدة، على مسامع (حونين)، الذي كظم غيظه في صعوبة، وتقمَّص لهجة هادئة، وهو يجيب في حزم:

- كل الثقة.

قال مدير (الموساد) محذرًا:

- لاحظ أنك ستتعامل مع جواز سفر دبلوماسي، وهناك قواعد معقَّدة، لمثل هذه الأمور.. لا يمكنك أن تضع أي احتمال للخطأ، وإلا أدى هذا إلى أزمة دبلوماسية.

ابتسم (حونين)، وأخفى سخريته في كلماته، وهو يقول:

- ومتى كانت (إسرائيل) تخشى الأزمات السياسية أو الدبلوماسية يا سيِّدي.. إن بقاءنا كله يعتمد على مواجهة تلك الأزمات، وتجاوزها بأكبر قدر ممكن من الوقاحة، ثم الاعتذار وتجاوز الأمر فيما بعد.

انعقد حاجبا مديره، وهو يقول في صرامة:

- ليس دومًا.. فقط عندما يكون في هذا صالح لـ(إسرائيل).

أكمل (حونين)، وقد عجز عن كتمان سخريته هذه المرة:

- أو أمن (إسرائيل)، أو حدود (إسرائيل).. هناك ألف مبرِّر ومبرِّر يا سيِّدي.

استدار إليه المدير بكل صرامته، وهو يقول:

- اسمع يا (حونين).. لست هنا من أجل سفسطة كلامية فحسب.. أريد حوارًا واضحًا مسئولاً، وإلا...

قاطعه (حونين)، وهو يقول في سرعة:

- جواز السفر به علامة مميِّزة.

تطلَّع إليه المدير في شك، فتابع في حزم وحماس:

- عندما سلمنا موظف السفارة ما لديه، طلبت من خبراننا وضع علامة دقيقة للغاية، في ركن جواز السفر.. علامة لا يمكن أن يلاحظها أي شخص عادى، ولكننا نعرفها جيدًا، وسيجلس أحد رجالنا في قسم الجوازات، وسيراجع كل جواز سفر إسرائيلي يقدَّم إليه، وعندما

يكشف تلك العلامة..

لم يحاول إتمام عبارته، وإنما فرقع سبّابته وإبهامه، دلالة على ما سيحدث، فمطّ مديره شفتيه، وهزّ رأسه، مغمغمًا:

- لست أظن المصريين بهذه السذاجة.

ابتسم (حونين)، قائلاً:

- المصريون ليسوا حتمًا بهذه السذاجة.. بل هم، في هذه العملية بالذات، يظهرون براعة مدهشة، ولكن حتى براعتهم لا تعنى أنهم سيربحون المعركة.

واتسعت ابتسامته، وهو يميل نحو مديره، مضيفًا:

- لأننا أكثر براعة.

رمقه المدير بنظرة صامتة، حملتا لمحة من الشك، قبل أن يعتدل، قائلاً في حزم:

- فليكن.. ما الخطوة التالية الآن؟!..

هزّ (حونين) كتفيه، مجيبًا:

- لا شيء.

ارتفع حاجبا المدير في دهشة، وهو يردّد مستنكرًا:

- لا شيء.

أيّده (حونين)، قائلاً:

- نعم.. لا شيء.. لقد قمنا بكل ما ينبغي علينا، حتى هذه اللحظة، وكل ما علينا أن نفعله الآن هو أن ننتظر.

تراجع المدير في مقعده، دون أن يعلّق بحرف واحد..

فمن الناحية العقلية والمنطقية، كان (حونين) على حق..

لقد لعب المصريون ببراعة..

ولكن (الموساد) كشف اللعبة..

والكل الآن ينتظر الجولة الأخيرة..

المواجهة الحاسمة..

في مطار (تل أبيب)، ستكتب نهاية اللعبة..

وسيعلن سجل المخابرات اسم الفائز الجديد..

كل ما عليهم إذن هو الانتظار..

ولكن، ولسبب ما، كان مدير (الموساد) يشعر بقلق شديد..

قلق غامض..

ومريب..

وعنيف..

عنيف للغاية..

* * *

تطلّع (غسّان) إلى هيئة (وليد) الجديدة، وراجع صورته في جواز السفر الدبلوماسي، قبل أن يهزّ رأسه في ارتياح، قائلاً في حزم:

- هيا يا بطل.. ينبغي أن تصل إلى المطار خلال ساعة واحدة.

غمغم (وليد):

- أعلم هذا.

كان يحاول كتمان ذلك التوتر العنيف، الذي يسرى في عروقه، إلا أنه لم ينجح في هذا، وهو يسأل:

- وماذا عن (فضل)؟!

أجابه (غسّان):

- (القاهرة) أبلغتني أنها تخطّط لإعادته.

سأله (وليد) في توتر:

- وهل تعتقد أن الإسرائيليين سيتركونه يفلت من بين أيديهم بهذه السهولة.

هزّ (غسّان) كتفيه، وقال:

- بعد رحيلك، لن يكون لديهم مبرّر واحد للتمسّك به.

قال (وليد) في عصبية:

- وماذا عن الانتقام؟!

ابتسم (غسّان)، وربّت على كتفه، قائلاً:

- في عالم المخابرات، يندر أن تظهر عقيدة الانتقام يا صديقي، فلا فائدة من المخاطرة بشخص أو أشخاص مدربين، للانتقام عن شخص فقد أهميته، بعد أن انتهت الحاجة إليه.. ربما يكون هناك سعي لاختطاف شخص ما، أو إعادته إلى هنا مثلاً، ولكن لمحاكمته، وليس لمجرد الانتقام منه.

قال (وليد) معترضًا:

- وماذا عن العملاء الذين خانوهم؟!

أجابه (غسَّان):

- لو أنهم من مواطني دولتهم، فسيسعون للاقتصاص منهم، أما لو أنهم عملاء خونة، ينتمون إلى دولة أخرى، وأفشوا أسرارهم، فنظم المخابرات تعتبرهم عملاءً محترفين، لا قيمة لهم، ولا فائدة من الانتقام منهم.. ناهيك عن أنهم لن يجازفوا برجل جديد، من أجل ورقة محترقة قديمة.

التقط (وليد) نفسًا عميقًا، وغمغم:

- تعتقد إذن أنهم لن يقتلوه.

أومأ (غسَّان) برأسه إيجابًا، وقال:

- (القاهرة) تؤكِّد هذا.

ثم عاد يبتسم، ويربت عليه، مستطردًا:

- ولكن في الوقت الحالي، لا تشغل رأسك بأي شيء.. حاول فقط أن تسترخي، فلا ينبغي أن تثير أدنى شك، عندما تذهب لتستقل

طائرتك، من مطار (تل أبيب)، أمام عيون زبانية (الموساد)..

أومأ (وليد) برأسه هذه المرة، وتنهَّد في عمق، قبل أن يسأل للمرة الأخيرة:

- هل تعتقد أنهم سيبتلعون طُعم جواز السفر الدبلوماسي هذا؟!

بدا (غسَّان) شديد الثقة، وهو يجيب:

- ما دامت (القاهرة) تؤكِّد أن كل شيء على ما يرام، فثق أنه كذلك.

بدت الدهشة ممتزجة بالفخر، في صوت (وليد)، وهو يقول:

- عجبًا!.. أنت فلسطيني، وعلى الرغم من هذا، تثق في (القاهرة) ثقة مطلقة.

اتسعت ابتسامة (غسَّان) أكثر، وهو يقول:

- ألست أنت كذلك؟!

وهنا ابتسم كلاهما..

وبمنتهى الثقة..

* * *

على الرغم من أن ذلك الشاب الوسيم، ممشوق القوام، لم يأت من قبل إلى فيلا العميد قط، إلا أنه بدا هادئًا واثقًا، وهو يعبر حديقتها، ويتجه نحو العميد مباشرة، قائلاً:

- ها أنذا.

رفع العميد عينيه إليه، وتأمّله بضع لحظات في اهتمام، وبعين فاحصة خبيرة، قبل أن يسأله:

- هل أخبرت أحدًا أنك ستأتي إلى هنا؟!

أجابه الشاب في سرعة وحزم:

- كلا.

ثم استدرك فورًا:

- وفقًا لتعليماتك.

هزّ العميد رأسه مستحسنًا، وهو يقول:

- عظيم.

ثم أشار إلى المقعد المجاور له، مضيفًا:

- اجلس.. فالحديث بيننا سيطول.

جلس الشاب على المقعد في هدوء، في حين تراجع العميد، وراح يتفرّسه بنظراته في تمعُّن..

إنه تمامًا كما وصفوه..

وسيم..

طويل..

قوى..

واثق..

وهادئ..

ومن عينيه يطلّ مزيج من الحزم والذكاء..

مزيج واضح، في عينين متميزتين..

فعلى الرغم من سنوات عمره القليلة، بدت عيناه أشبه بعينيّ أسد.. إنه بالضبط، ذلك الطراز، الذي يبحث عنه..

حتى ملامحه، جزء من موهبته..

ملامح متعادلة، يصعب تمييز هوية صاحبها، وسط عالم بلا حدود أو جدران..

ملامح تصلح لأية جنسية..

ولأي تغيير..

"أخبروني أنك نحّات بارع.."..

نطق العميد العبارة، لكسر حاجز الصمت بينهما، فأجاب الشاب في هدوء:

- ربما يبالغون قليلاً.

سأله العميد في اهتمام:

- هل درست فن التنكُّر؟!

أجاب الشاب.

- القليل منه.

أشار العميد بيده، قائلاً:

- في عالمنا، القليل لا يكفي أبدًا.. إنها أخطر لعبة في التاريخ كله..

أخطر حتى من لعبة الحرب نفسها، واللاعبون فيها لابد وأن يكتسبوا كل المهارات الممكنة، وأن يتميَّزوا بذكاء بلا حدود.

لم يعلّق الشاب على عباراته، وإن نمّ ذلك البريق في عينيه، على فهم للموقف كله، فتابع العميد، وعيناه ما زالتا تفحصان الشاب في اهتمام:

- متى تكمل سنوات دراستك؟!

أجاب الشاب:

- بعد عام تقريبًا.

سأله العميد في اهتمام:

- وماذا تخطّط لمستقبلك؟!

صمت الشاب بضع لحظات، قبل أن يتجاهل ذلك السؤال تمامًا، ويسأل هو:

- لماذا طلبت مقابلتي يا سيِّدي؟!.. ولماذا يتحتم أن تكون هذه المقابلة سرية؟!

ابتسم العميد لمراوغة الشاب، ومال نحوه، يجيب سؤاله بآخر:

- ما الدرجة التي أحرزتها، في قسم (3 ج أ)؟!

كان هذا هو قسم الشئون الإسرائيلية..

قسم تم إعداده، بحيث يصبح نسخة طبق الأصل من المجتمع الإسرائيلي نفسه..

كل شيء داخله إسرائيلي تمامًا..

اللغة المستخدمة هي اللغة العبرية..

اللافتات كلها عبرية..

التليفزيون يبث برامج ونشرات أخبار إسرائيلية..

حتى أفكار الشبان داخله، تسير وفقًا للنهج الإسرائيلي..

باختصار، كان معسكرًا شديد الخصوصية، لتدريب فئة خاصة جدًا، على العيش والذوبان وسط المجتمع الإسرائيلي..

ولأنه قسم سري للغاية، وخاص إلى أقصى درجة، لم يكن يلتحق به سوى الفائقين للغاية..

حتى ذويهم، كانوا يجهلون هذا..

وربما لهذا بالتحديد، شعر الشاب بالدهشة لسؤال العميد، إلا أنه، وبمهارة مذهلة، أخفى مشاعره كلها في أعماقه، وظلّ متماسكًا، وهو يجيب:

- درجة جيدة يا سيِّدي.

ابتسم العميد، وقال:

- بل حصلت على الدرجات النهائية، ولأوّل مرة في تاريخ القسم كله يا فتى، وهذا ما دفعني لطلب مقابلتك، وللاستعانة بك في مهمة خاصة.

لم يكد يأتي على ذكر المهمة، حتى استنفر كل حواس الشاب، فاعتدل في مقعده، وأرهف سمعه وانتباهه، ولم يخف هذا على العميد، الذي تراجع في مقعده، قائلاً:

- تمامًا، كما أخبروني عنك.

سأله الشاب في حذر:

- من أخبرك عني يا سيِّدي.

أشار إليه العميد، قائلاً:

- سيدهشك أنني أعرفك أكثر مما تتصوَّر.

أطلّت لمحة من الشك، من عيني الشاب، فأضاف العميد، وهو يتراجع في مقعده أكثر:

- أعرفك منذ طفولتك.

صمت الشاب لحظة، ثم قال:

- كنت زميلاً لوالدي.

أجابه العميد في سرعة:

- بالضبط.

تراجع الشاب، وصمت بضع لحظات أخرى، قبل أن يقول في حزم:

- ولماذا يتحتم ألا أخبره إذن؟!

أجابه العميد، في حزم أكثر:

- العمل يقتضي هذا.

صمت الشاب ولم يجب، وأدرك العميد ما يعنيه هذا الصمت، فاعتدل في مقعده، وقال، مواصلاً حزمه:

- المهمة التي طلبتك من أجلها، شديدة الحساسية والخطورة، وتحتاج إلى خبير بالمجتمع الإسرائيلي، وعميل مخابرات فائق، ورجل عمليات خاصة من الطراز الأوّل، ولقد وقع اختياري عليك؛ لما تتمتع

به من مهارات خاصة، بعد التدريبات الطويلة التي تلقيتها، على الرغم من سنوات عمرك القليلة.. الإسرائيليون لن يتوقعوا قط أن يمتلك شابًا في عمرك كل هذه المهارات، مما سيجعلك ورقة رابحة، في أخطر لعبة في الوجود.

والتقى حاجباه، في مزيج من الحزم والصرامة، وهو يضيف:

- وهذه المهمة قد تعرّض أمنك وسلامتك.. بل وحياتك كلها للخطر، ولكن لو أنجزتها بنجاح، فسيكون من دواعي فخري أن أضمك لفريق، وأن أتولى بنفسي إكمال البرنامج التدريبي، الذي بدأه معك والدك، منذ سنوات عمرك الأولى.

ران عليهما الصمت بعدها لحظات، وكلاهما يتطلّع إلى عيني الآخر، قبل أن يقول العميد:

- والآن.. هل تقبل المهمة؟!

شدَّ الشاب قامته على مقعده، وبدا أقرب شبهًا إلى أسد صغير قوي، وهو يجيب بمنتهى الحزم:

- أنا رهن إشارتك.

سأله العميد:

- مهما كان الخطر.

أجابه الشاب بنفس الحزم:

- سأعتبره جولة في برنامجي التدريبي.

تراجع العميد في مقعده بابتسامة كبيرة، وقال:

- هذا ما توقعته منك.

ثم عاد يميل نحوه، مضيفًا:

- والآن، استمع جيدًا يا (أدهم).

وراح يشرح له الخطة..

بكل تفاصيلها..

* * *

لم يشهد مطار (تل أبيب)، في تاريخه كله، إجراءات أمن صارمة، مثلما شهدها في ذلك اليوم..

كان رجال (الموساد) منتشرين في المكان كله..

أجهزة اللاسلكي في أيديهم..

مسدساتهم في أحزمتهم..

عيونهم منتبهة..

عقولهم يقظة..

أعصابهم متحفزة..

وفى مكتبه، راجع (حونين) بنفسه إجراءات الأمن، وهو يقول لمساعده:

- أريد أن أشاهد كل شيء بنفسي.

أجابه مساعده في احترام:

- هذا حقك يا أدون (حونين).

تألقت عينا (حونين) ببريق نصر مبكر، وتراجع في مقعده بزهو طاووسي، وهو يقول:

- أريد رؤية وجه (دافيد شولومون) الحقير، عندما يقع في قبضتي كما أنذرته من قبل.

وافقه مساعده بإيماءة من رأسه، دون أن يجد ما يجيب به،

فأطلق (حونين) زفرة قوية، وابتسم ابتسامة كبيرة، ونهض من خلف مكتبه، قائلاً:

- هناك خطوة أخيرة، قبل أن نذهب إلى المطار.

قالها، ودسَّ مسدسه في حزامه، واتجه ومساعده خلفه، إلى قبو المبنى، حيث يحتجزون (رأفت)..

كان رجل العمليات الخاصة المصري ما زال يشعر بالكثير من الألم والإرهاق، على الرغم من أنهم قد أوقفوا تعذيبه، ولكنه قاوم كل هذا، وتماسك تمامًا في مواجهة (حونين)، الذي وقف أمامه، قائلاً في صرامة قاسية:

- حانت لحظة الاختبار.

أجابه (رأفت) في خفوت:

- لقد أخبرتك كل ما لدى.

سأله (حونين):

- وللمرة الأخيرة أسألك.. أأنت واثق مما أخبرتني به.

قال (رأفت) في سرعة:

- هذا ما أخبروني به في (القاهرة).

كان (حونين) يعلم أنه محق، إلا أنه، وعلى الرغم من هذا، أشار إلى رأسه بسبَّابته، قائلاً:

- من صالحك أن يكون صحيحًا، وإلا عدت إلى هنا، وأطلقت رصاصة على رأسك.

قال (رأفت) في حزم:

- لقد أخبرتك بما أخبروني به.

غمغم (حونين):

- سنرى.

ثم غادر الزنزانة في حركة حادة صارمة، فتبعه مساعده، يسأله في اهتمام:

- إنه يؤكِّد ما لدينا يا أدون (حونين).. أليس كذلك؟!

قال (حونين) في صرامة:

- من صالحه أن يفعل.

تردَّد المساعد لحظة، قبل أن يسأله:

- ولكنك لست جادًا في التهديد بقتله، لو كان المصريون سيلجئون إلى وسيلة أخرى.

أجابه (حونين) في قسوة:

- بل أنا جاد تمامًا.

هتف المساعد في دهشة:

- ولكن الأوامر..

قاطعه (حونين) في سخط:

- تبًا للأوامر.

احتقن وجه المساعد، الذي اعتاد طاعة الأوامر دون مناقشة، في حين التقط (حونين) نفسًا عميقًا، محاولاً تهدئة انفعاله، قبل أن يكمل:

- الأوامر نفسها تقتضى منع الأسير من الهرب، حتى لو تحتم الأمر...

صمت لحظة، والتفت إلى المساعد، وتألقت عيناه، مع إضافته:

- قتله... لدواعي الأمن.

واحتقن وجه المساعد أكثر..

فالآن فقط، تلقَّى درسًا جديدًا من دروس عالم المخابرات..

الإسرائيلية..

فقط..

* * *

6 - دبلوماسية..

منذ اللحظة الأولى، أدرك (غسّان) أن الموقف كله غير طبيعي على الإطلاق، في مطار (تل أبيب)..

صحيح أن رجال (الموساد) قد بذلوا قصارى جهدهم؛ ليذوبوا بين أطقم الأمن العادية، وليظهروا بمظهرهم، إلا أن هذا لم ينجح في خداع عين فاحصة خبيرة مثل عين فدائي فلسطيني، يواجه الموت في كل لحظة..

(وليد) أيضًا أنبأته حاسته الأمنية أن وراء الأكمة ما وراءها..

ولكن كلاهما تماسك تمامًا..

لم يصلا إلى المطار معًا بطبيعة الحال، وإنما سبقه (غسّان) إليه، وامتزج بالمودعين والمنتظرين، وهو يراقب الموقف بكل انتباهه..

وقبل حتى أن يصل (وليد)، بدأ هو يشعر بالتوتر..

وراودته فكرة إلغاء العملية كلها..

ولكن خبرته علمته أن يلتزم بأوامر (القاهرة)، مهما بدا الأمر

مختلفًا..

هكذا تنص قواعد اللعبة..

لعبة المخابرات..

ولعبة الجاسوسية..

الجميع فيها أشبه بقطع الشطرنج، لا يعلم كل منهم سوى دوره وحده، وعليه أن يؤديه كما ينبغي..

أما اللعبة كلها، فيديرها عقل آخر..

عقل لا يشترك في اللعبة نفسها..

فقط يديرها..

عقل ثعلب..

وهذا وحده لا يكفي..

لابد وأن يتمتع ضابط الحالة (وهذا ما يطلق عليه)، إلى جوار عقله الفريد، بجرأة كبيرة، وثقة لا حدود لها، ومعرفة فائقة بطبائع النفس البشرية..

لذا، فضابط الحالة هو شخص من طراز خاص..

خاص جدًا..

جدًا..

أما اللاعبون، فعليهم تنفيذ أوامره، والقيام بما عليه من تحركات، دون معارضة أو مناقشة..

وعلى أكمل وجه..

وقبل أن يحسم (غسّان) فكره، في هذا الشأن، وصل (وليد) إلى أرض المطار..

وصل في هيئته الجديدة، وجواز سفره الدبلوماسي..

والمدهش أنه لم يكن حامل جواز السفر الدبلوماسي الوحيد، في ذلك اليوم...

لقد اختار المصريون يومًا مميَّزًا، انتهى فيه مؤتمر دبلوماسي كبير في (تل أبيب)، واستعدَّت كل البعثات المشاركة فيه، للسفر إلى (لندن)، لحضور مؤتمر تكميلي هناك..

وهذا يتضمَّن البعثة الدبلوماسية الإسرائيلية أيضًا..

وبمنتهى الحنق، لاحظ (حونين) أن المطار يكتظ بدبلوماسيين من كل الجنسيات، فغمغم في سخط:

- ما هذا بالضبط؟!

قال مساعد مبهورًا:

- رباه!.. المصريون اختاروا الموعد بمنتهى الدقة.. هناك أكثر من سبعين دبلوماسيًا في المطار.

وهزَّ رأسه، مكملاً:

- يالليراعة!

التفت إليه (حونين)، في صرامة غاضبة، فاستدرك مرتبكًا:

- أعني يالوقاحة!..

قال (حونين) في حدة:

- كان ينبغي أن ننتبه إلى هذا مبكرًا.

أشار المساعد بيده، قائلاً:

- لقد رتبنا كل شيء، وكثرة الدبلوماسيين لن تعنى شيئًا، ما دمنا

نعرف ما نبحث عنه.

هتف (حونين):

- بالضبط.. المصريون يتصورون أنهم بهذا سيربحون المعركة، ولكننا سنثبت لهم أننا الأكثر براعة.

أضاف المساعد في سرعة:

- وسنوقع برجلهم.

قال (حونين) في حدة:

- جاسوسهم.

صحَّح المساعد مرتبكًا:

- بالطبع يا أدون (حونين).. بالطبع.

أشار إليه (حونين)، قائلاً:

- نحن نسبق المصريين بخطوة؛ لأننا نعلم كيف سيخرجون رجلهم، وهم يجهلون أننا نعلم، ورجالنا سيفحصون كل جواز سفر دبلوماسي إسرائيلي، وسيكشفون اللعبة.

وانعقد حاجباه في شدة، وهو يضيف:

- وسأستمتع برؤيتهم يخسرون المعركة.

في نفس اللحظة، التي نطق فيها عبارته الأخيرة، كان (وليد) ينهى إجراءاته، في القسم الخاص بكبار الشخصيات، وقد بلغ توتره مبلغه، ورجال الأمن يفحصون كل جواز سفر بمنتهى الدقة..

إنهم لن يتعرفوه حتمًا..

لقد شاهد هيئته الجديدة في المرآة، ويعلم أن خبير التنكُّر شديد البراعة إلى أقصى حد..

(غسَّان) أخبره أنه مسئول عن الفصائل الفلسطينية، إلا أن شيئًا ما، في حركاته أو سكناته، كان يوحى بأنه مصري..

المخابرات المصرية أرسلته حتمًا..

إنه واثق من تنكره..

ولكن ماذا عن جواز السفر؟!..

الإسرائيليون يفحصون كل جوازات السفر بدقة بالغة، كما لو أنهم يبحثون عن شيء محدود..

وهنا يكمن الخطر..

كل الخطر..

"هل راقت لك الإقامة في (إسرائيل)؟!.."..

ألقى رجل الأمن الإسرائيلي السؤال، وهو يفحص ركن جواز السفر الذي يمسك به، في دقة متناهية، فقال صاحبه في برود:

- يا له من سؤال!.. ألم تدرك أنني (إسرائيلي) يا رجل؟!..

تسلّلت يد رجل الأمن إلى زر أحمر أمامه، وهو يقول:

- أأنت كذلك حقًا؟!

سرى توتر واضح، في كيان حامل الجواز، وإن حاول أن يبدو متماسكًا، وهو يقول في حدة:

- أي قول أحمق هذا؟!.. ألا يشف جواز سفري الدبلوماسي عن هويتي؟!

قال رجل الأمن في صرامة، وهو يضغط الزر الأحمر في قوة:

- ربما يشف عن العكس تمامًا..

وتوتر الموقف كله في لحظة واحدة..

من كل مكان، ظهر رجال أمن، أحاطوا بالرجل، وصوّبوا مدافعهم الآلية إليه، فقال في عصبية:

- ماذا يحدث بالضبط.. أنا دبلوماسي، ولدى حصانة بحكم..

قاطعه فجأة صوت (حونين) الصارم:

- اصمت.

ظهر (حونين) فجأة، وهو يشق صفوف رجال أمنه، ويحمل مسدسه نصف الآلي، وسأله رجل الأمن في صرامة:

- هل فحصت جواز السفر؟!

أشار الرجل بسبّابته ووسطاه، قائلاً:

- مرتان يا سيِّدي.

هتف صاحب الجواز في حدة:

- إنني أطالب بتدخّل وزير الخارجية.. هناك قواعد خاصة، للتعامل مع أي...

قاطعه (حونين) بصيحة هادرة:

- قلت: اصمت.

احتقن وجه الرجل، وقال في حدة:

- سأتقدَّم بشكوى للـ..

قبل أن يتم عبارته، انقضّ عليه (حونين)، في حركة شديدة العنف، وجذبه من سترته في قسوة، وهو يقول بالعربية:

- ألم تسمعني جيدًا.. أمرتك أن تصمت.

حدَّق الرجل في وجهه مذعورًا، وبدأ الدبلوماسيون الآخرون يتهامسون، في توتر شديد العصبية، فأشار إليهم أحد رجال الأمن، قائلاً في حزم:

- معذرة أيها السادة.. هذا شأن داخلي.. أقترح أن يتجه كل منكم إلى الطائرة؛ فالأمر هنا سيستغرق وقتًا طويلاً، وطائرتكم ستقلع بعد قليل.

تضاعف تهامسهم المتوتر، إلا أنهم توجهوا بالفعل نحو الطائرة، وسأل أحد دبلوماسي أوروبا زميله الأفريقي في قلق:

- ترى ماذا يحدث هنا؟!

أجابته زميله في همس متوتر:

- يبدو أنهم يلقون القبض على جاسوس.

شاهد (غسّان) ما يحدث، ورأى رجال الأمن يلتفون حول صاحب جواز السفر الدبلوماسي، فقال في انفعال:

- رباه!.. لابد من إبلاغ (القاهرة).. فورًا..

وبالفعل.. وقبل حتى أن يغادر الكل أماكنهم، كان أحد رجال الفصائل الفلسطينية يبلغ (القاهرة)..

يبلغها أن الفصل الأخير قد انكتب..

بالفعل..

* * *

"مستحيل.."..

هتف اللواء بالعبارة، في مكتبه داخل جهاز المخابرات العامة في (القاهرة)، عندما طالع الاتصال اللاسلكي العاجل، الذي وصل من (تل أبيب)، وأعاد قراءته مرة ثانية، ومساعده يقول:

- هل نبلغ سيادة العميد بالأمر يا سيِّدي.

قرأ اللواء الاتصال مرة ثانية، قبل أن يهزّ رأسه، مغمغمًا:

- أظن أنه من الأفضل أن أبلغه بنفسي.

وهزّ رأسه، مضيفًا:

- من كان يتوقع هذا.

قالها، وهو ينهض من خلف مكتبه، ويستقل سيارته؛ ليبلغ العميد بنفسه ما ورد من (تل أبيب)..

فعلى الرغم من كل ما حدث، كانت النتائج تفوق توقعاته..

كل توقعاته..

وفى نفس اللحظة، التي انطلقت فيها سيارته، نحو فيلا العميد في (القاهرة)، كان (حونين) يواجه صاحب جواز السفر في (تل أبيب)، ويقول بعينين متألقتين، ولهجة ظفر قوي:

- هل تصوَّرت أنني لن أتعرَّفك؟!

قال صاحب الجواز، في توتر بالغ:

- ما الذي يعنيه كل هذا؟!

مال (حونين) نحوه، مجيبًا:

- يعنى أنك قد خسرت يا رجل.

وتأمَّله مرة أخرى، قبل أن يضيف:

- أعترف أن تنكرك مدهش للغاية، حتى أنني لم أتعرَّفك للوهلة الأولى، ولكن هذا لا يعني أن عليك الفرار من هنا بسهولة.

هتف الرجل في عصبية:

- ومن تحدَّث عن الفرار؟!.. إنني ذاهب لحضور مؤتمر تكميلي في...

قاطعه (حونين) في حدة:

- هراء.

احتقن وجه الرجل في شدة، وهتف:

- اسمع يا رجل الأمن..

عاد (حونين) يقاطعه في قسوة:

- اسمعني أنت جيِّدًا.. لقد خسرتم اللعبة أيها المصريون.. خسرتم

تمامًا.. أتعلم لماذا؟!

حدَّق الرجل في وجهه بذعر، هاتفًا:

- مصريون؟!.. ومن قال إن..

صرخ فيه (حونين)، متجاهلاً مقاطعته:

- لأننا الأبرع..

هزَّ الرجل رأسه في قوة، قائلاً:

- هناك حتمًا خطأ ما.

وثبت يد (حونين) تمسك أنف الرجل، وهو يقول في حدة:

- بالتأكيد.. أنفك أكبر من اللازم..

قالها، وهو يجذب الأنف بشدة، و...

وسرت في جسده قشعريرة عنيفة..

فالأنف لم ينتزع من مكانه، كما كان يتصوَّر..

هذا لأنه لم يكن أنفًا تنكريًا..

بل كان أنف الرجل..

أنفه الطبيعي..

وهنا فقط، تراجع (حونين) بحركة حادة، وحدَّق في وجه الرجل بكل الذهول، وغمغم:

- إنك لست (شولومون).

هتف الرجل في حدة:

- بالطبع أيها الأحمق.. هذا ما أردت قوله منذ اللحظة الأولى، ولم تمنحني الفرصة لهذا.

واتسعت عينا (حونين) أكثر وأكثر..

وسقط قلبه بين قدميه..

فهذا يعنى أنه قد ارتكب أكبر خطأ في حياته..

وآخر خطأ..

* * *

تألقت عينا العميد بشدة، وشعرت كل خلية من جسده بالارتياح، عندما هتف به اللواء في حماس:

- (وليد) غادر (إسرائيل) بالفعل.

كان اللواء يهتف بها، في مزيج من الزهو والتقدير، قبل حتى أن يجذب مقعده، ويجلس إلى جوار العميد، في حديقة فيلا هذا الأخير، الذي سأل في هدوء واثق:

- من أبلغكم؟!

ارتفع حاجبا اللواء في دهشة، وهو يقول:

- عجبًا!.. كنت أتصوَّر أنك ستقفز من الفرحة!

ابتسم العميد، وهو يجيبه:

- إنني فرح سعيد بالتأكيد، ولكن أعتقد أن فكرة القفز هذه لا تناسب حالتي.

ارتبك اللواء، وهو ينظر إلى مقعده المتحرِّك، مغمغمًا:

- معذرة.. لم أقصد أن..

قاطعه العميد، ليتجاوز الموقف كله:

- لم تخبرني من أبلغكم.

عاد اللواء يبتسم، وهو يقول:

- رئيس وحدة الاتصال الفلسطينية شخصيًا.. الواقع أن الرجل مبهور بما حدث.

أشار العميد بسبَّابته، قائلاً:

- لا ينبغي له أن ينبهر.. لقد طبقنا قواعد علم النفس، التي درسها هنا.

هتف اللواء:

- بالتأكيد.

ثم مال نحوه، يسأله في لهفة:

- ولكن برقية (غسَّان) لم تتضمن كيفية خروجه تحت سمعهم وبصرهم، من مطار (تل أبيب).. كل ما قاله هو أنه في طريقه إلى (لندن)، و(صبري) ينتظره مع عدد من رجالنا هناك، وسيرسلونه بجواز سفره المصري إلى هنا، فور وصوله.

غمغم العميد، وهو يسبل جفنيه في ارتياح:

- عظيم.

صمت اللواء لحظة، ثم غلبه فضوله الشديد، فعاد يسأله:

- ولكن كيف خرج من هناك؟!

"بجواز سفر دبلوماسي.."..

نطق مدير (الموساد) العبارة في غضب شديد، وثورة بلا حدود، وهو يواجه (حونين)، الذي شحب وجهه في شدة، وغمغم بمنتهى الارتباك والذهول:

- ولكن كيف؟!.. لقد راجعنا كل جوازات السفر الدبلوماسية و...

قاطعه المدير في حدة:

- الإسرائيلية.

فغر (حونين) فاه، مغمغمًا:

- ماذا تعنى يا سيِّدي؟!

لوَّح مدير (الموساد) بيده في غضب هائل، وهو يصرخ في وجهه، بكل ما اعتمل في نفسه من انفعالات:

- لقد ابتلعتم الطعم، الذي رماه لكم المصريون، بمنتهى السذاجة

والسخافة.. أرسلوا من يخبركم أنه سيغادر (إسرائيل)، وشرح لكم كيفية مغادرته، وعبثوا بكم في الوقت ذاته.

ازداد شحوب وجه (حونين)، وهو يقول:

- أتقصد أن (شمونيل) قد عبث بنا، وخدعنا لحساب المصريين.. لو أنه فعل، فأقسم أن..

قاطعه المدير في غضب:

- (شمونيل) لم يخدعنا أيها الغبي.. (شمونيل) كان جزءًا من خطة المصريين.. وجهه أنهم يعبثون به، ساعد على إقناعك ونجاح الخطة.

فغر (حونين) فاه أكثر، وتمتم في ذهول:

- ولكن كيف؟!

"علم النفس يا سيِّدي.."..

نطقها العميد في هدوء، وبابتسامة واثقة كبيرة، فتراجع اللواء في مقعده، وسأله مبتسمًا بدوره:

- كيف؟!

أجابه في بساطة:

- تجنيد (شموئيل جاران) تم بالمخالفة لكل نظم التجنيد المنطقية، وكان محكومًا عليه بالفشل، منذ اللحظة الأولى، ولكننا لم نكن ننوي دفعه للعمل لحسابنا بإرادته، وإنما أردنا بالضبط ما فعله.. أردنا أن يبلغ الإسرائيليين ما حدث.

قال اللواء في اهتمام:

- ولكنه كان واثقًا من أنكم تسعون لجواز سفر دبلوماسي إسرائيلي بالفعل.

أجاب العميد:

- بكل تأكيد، فالإسرائيليون ما كانوا ليصدقوا قوله هذا، وكانوا سيشكون حتمًا فيما لديه، ولكنهم سيسعون للتيقن بكل السبل، ومصادرهم في (لندن) ستثبت لهم ما حدث، كما أنهم سيستجوبون موظف سفارتهم تحت جهاز كشف الكذب كعادتهم، وفى كل الأحوال، ستأتي الرواية الاحتياطية، التي سيدلى بها (رافت)، والتي لقناه إياها قبل مهمته، لتحسم لهم الأمر كله، وعندئذ، سيتيقنون من أن اللعبة حقيقية، وسيتضاعف يقينهم هذا، عندما ننجح في أخذ ما لدى (شمونيل) بوسيلة بارعة، على الرغم من أنهم سيراقبونه حتمًا.

شمل الحماس اللواء، وهو يقول:

- وسيفحصون كل جواز سفر دبلوماسي إسرائيلي.

أشار العميد بسبَّابته مرة أخرى، قائلاً:

- فقط.

ثم تراجع في مقعده، مضيفًا:

- أما (وليد)، فسيحوّله مسئول التنكُّر الذي أرسلناه، إلى هيئة أفريقية، ببشرة في لون الشيكولاته، وشفاة غليظة، وشعر أكرت قصير، ومع جواز سفر دبلوماسي، يحمل أختام جنوب أفريقيا، ووسط عدد من البعثات الدبلوماسية الرسمية، وفى الوقت الذي يتصورون أنهم قد كشفوا فيه الجاسوس، سيصبح خروجه أمام أعينهم أكثر سهولة.

حدَّق فيه اللواء في ذهول مبهور، قبل أن يغمغم:

- مدهش.

هزَّ العميد كتفيه في بساطة، وكأنما كان يتوقع النصر، فواصل اللواء التحديق فيه بانبهار أكثر، قبل أن تثب فكرة إلى رأسه، فيحوّلها

إلى لسانه، متسائلاً:

- ولكن ماذا عن (رافت)؟!

"سأقتله.."..

صرخ (حونين) بالكلمة، وهو يهبّ من مقعده غاضبًا، فصاح به مدير (الموساد) في حدة:

- ولماذا؟!.. الشاب أخبرك بما حدث بالفعل.. أخبرك أن (شولومون) سيغادر إسرائيل بجواز سفر دبلوماسي، وهذا ما حدث بالفعل.

هتف (حونين)، وهو يسحب مسدسه:

- كانت خدعة.. جزء من خطة الخداع.. تأكيده هو الذي جعلنا..

قاطعه المدير في حدة شديدة هذه المرة:

- غباؤك وغطرستك هما من فعل بك هذا.. المصريون أجادوا اللعبة.. لابد وأن نعترف بذلك.. أجادوها حتى النخاع.. أجادوها لأنهم يعلمون أنهم يواجهونك أنت، وقد حفظوا أسلوبك ودرسوا فكرك وردود أفعالك جيدًا..

انتفض (حونين)، وهو يهتف:

- مستحيل أن...

قاطعه المدير مرة أخرى:

- المستحيل هو ما تفعله أنت.. المستحيل هو إصرارك على ألا تلعب دور ضابط الحالة، كما ينبغي أن يكون عليه.. عملك الطويل في قوات الكوماندوز جعلك أميل للعنف، منك إلى العقل.. المصريون لم يلجئوا للعنف مرة واحدة، خلال اللعبة كلها، وكل ما تفعله أنت هو أن تلوّح بمسدسك، وتهدّد بقتل الأسرى، بدلاً من أن تسعى للاستفادة منهم.

امتقع وجه (حونين)، وهو يقول:

- هذا الأسير بالذات ينبغي أن يموت.. المخطئ لابد وأن يدفع ثمن خطأه.

اعتدل مدير (الموساد)، وضغط زرًا على سطح مكتبه، وهو يقول بمنتهى الصرامة:

- أنت على حق.. المخطئ لابد وأن يدفع ثمن خطأه.. رئيس

الوزراء أيضًا يتفق معك في هذا الرأي.

قبل أن يفهم (حونين) ما يعنيه هذا، اندفع عدد من الجنود إلى حجرة مكتب المدير، وصوَّبوا مدافعهم الآلية إليه، وبرز وسطهم مساعده، وهو يقول في ارتباك:

- معذرة يا أدون (حونين).. إنها الأوامر.

انتفض (حونين) من شدة الانفعال، وهو يقول:

- أية أوامر؟!

أجابه المدير في صرامة:

- أوامر رئيس الوزراء يا (حونين).. لقد تم إيقافك عن العمل، وتحويلك إلى تحقيق عام، بتهمة الإهمال، والتسبُّب في تهديد أمن (إسرائيل).

تفجَّر الذهول والغضب، من كل ذرة في كيان (حونين)، وهو يهتف:

- أمن (إسرائيل)؟!.. أنا؟!.. الأفضل أن تبحثوا عن حجة أخرى، عندما تتقون كبش فداء للفشل يا سيِّدي..

أجابه المدير في ازدراد:

- لن تكون هناك مشكلة، فأنت قلتها من قبل.. هناك أكثر من حجة.. أمن (إسرائيل).. وجود (إسرائيل)، حدود (إسرائيل).. سنجد الوسيلة يا رجل.

وأشار إلى الجنود، فاندفعوا يكبلون يديّ (حونين) الذاهل، في حين بدا المدير شديد الغضب والصرامة..

فقد ربح المصريون المباراة كلها..

وبجدارة..

* * *

7 - ختام..

"السيِّد (وليد) وصل إلى (القاهرة) يا سيِّدي.."..

قالها مندوب الاتصال الشاب، في احترام بالغ، وهو يتطلّع إلى العميد بتقدير أكثر ذلك الصباح، فهزَّ هذا الأخير رأسه، وبدا مستغرقًا في رقعة الشطرنج أمامه، وهو يغمغم:

- عظيم.

تنحنح الشاب في ارتباك، وتمتم:

- لقد تقدَّم بطلب لمقابلتك؛ ليشكرك على..

قاطعه العميد في صرامة:

- كلا.

شدَّ الشاب قامته، فتابع في حزم:

- لا ينبغي أن يلتقي بي العملاء أبدًا.. أو يعرفون حتى من أنا..

غمغم الشاب:

- كما تأمر يا سيِّدي.

عاد العميد إلى استغراقه في رقعة الشطرنج أمامه لحظات، ثم نقل قطعة بيضاء، قبل أن يرفع عينيه إلى الشاب، قائلاً:

- هل تعلم لماذا خسر الإسرائيليون لعبتهم الأخيرة؟!

سأله الشاب في لهفة:

- لماذا يا سيِّدي؟!

أشار بسبَّابته، مجيبًا:

- لأننا كنا نعرف من نواجه بالضبط.. لقد دفعهم غرورهم إلى تجاوز ألف باء المخابرات، وإخفاء هوية ضابط الحالة في العملية.. ضابطهم خرج يقوم بالمهام بنفسه، فرصدناه، وعرفناه، ودرسنا أسلوبه، ووضع القسم النفسي منظومة وخريطة نفسية متكاملة لشخصيته، مما بدا أشبه بضوء ساطع، ينير لي الطريق، في كل خطوة أخطوها.. وعلى الجانب الآخر، كنت أنا مجهولاً تمامًا بالنسبة لهم.. شخص يعتبرونه في عداد الموتى، ويتحرَّك بتكنيك مختلف تمامًا.. أمر يجعلهم يعجزون، ليس عن فهمي [illegible]ب، ولكن عن توقُّع خطواتي التالية أيضًا.

ثم عاد ببصره إلى رقعة الشطرنج، مضيفًا:

- تمامًا كما تنص قواعد اللعبة.

بدا الشاب أكثر انبهارًا، وهو يتمتم:

- بالضبط يا سيِّدي.. بالضبط.

وتردَّد لحظة أخرى، قبل أن يقول:

- ولكن لديه مطلب آخر يا سيِّدي.

سأله العميد، دون أن يرفع عينيه عن الرقعة:

- وما هو؟!

تنحنح، قبل أن يجيب:

- يريد الاطمئنان على سلامة السيِّد (رأفت).

صمت العميد بضع لحظات، وهو يعتدل على مقعده، ويستغرق في التفكير، قبل أن يقول في حزم:

- أخبره أننا نتفاوض مع الإسرائيليين لاستعادته، ولكننا لا نعتمد على هذا وحده.

وصمت لحظات، ثم أضاف بابتسامة غامضة:

- لقد أرسلت إليه فهدًا.

بدت ابتسامته شديدة الغموض، وتمنى الشاب لو يسأله عما يعنيه، إلا أن الأوامر الدائمة كانت تمنع هذا تمامًا، لذا فقد شدَّ قامته، واستعد للانصراف، في حين نقل العميد قطعة سوداء، وقال في هدوء:

- كش ملك... مات.

وكان هذا إيذانًا بانتهاء اللعبة..

لعبة الثعالب.

* * *

المتخصصون

2

لعبة الثعالب

د.نبيل فاروق

عميل مصرى، ورجل عمليات خاصة، محتجزان فى (تل أبيب)..

واللعبة تحتدم أكثر وأكثر..

وفى صراع عالم المخابرات، لا مجال للرحمة..

أو للتراخى..

إما أن تقاتل، أو تخسر معركتك..

وربما حياتك..

ولكنه ليس قتال أجساد، بل قتال آخر..

لعبة تديرها عقول ماهرة، ماكرة، بارعة، متفوّقة..

لعبة الخطر والصمود والإثارة..

لعبة الثعالب.

الكتاب القادم

عملية الفهد

الناشران: دار ليلى - دايموند بوك

الثمن في مصر:

3 جـ